الجزء الأول

عرض نظريات فرويد

١ ـ تركيب العقل

ترتكز نظرية التحليل النفسى على مبدأ أن التفكير والنشاط مشتقان من ميكانيكية بعيدة عن تحكم الشعور وتعرف باصطلاح « اللاشعور » وعند فرويد يعبر « اللاشعور » عن شئ أكثر من فكرة الميكانيكيات البعيدة عن الشعور ، مثل اختزان الأحاسيس التى تصبح لا شعورية بمرور الزمن ، وقد ركز فرويد بوجه خاص على الطبيعة الإيجابية والصفة الديناميكية لهذه الميكانيكيات اللاشعورية التى تؤثر فى أفكارنا وتحدد حركاتنا الشعورية .

تعرضت هذه الفكرة عن الميكانيكيات النفسية اللا شعورية لانتقادات كثيرة، وبخاصة فى الأوساط الفلسفية ، لأنها يمكن أن تبدو متناقضة فى ظاهرها . فحسب هذا النقد ، أى واقعة نفسية هى ، بحسب تعريفها ، واقعة شعورية ومن هنا يستحيل القول إن هناك واقعة نفسية لا شعورية ، وهذا يعنى أنه يمكن وجود وقائع نفسية لا تتمشى مع التعريف .

والواقع أن الخلاف هنا خلاف حول الكلمات وتتركز النقطة الأساسية فى معرفة هل يمكن اعتبار كلمتى : «شعور » و« نفس » مترادفتين . الشعور كلمة من الصعب إن لم يكن من المستحيل تعريفها. إذ عندما نحاول تعريفها نلجأ إلى مصطلحات مثل « إحساس » وهذه تحتاج بدورها إلى تعريف . ويبدو أنه يجب علينا أن نقبل فكرة أننا نعرف ما هو « الشعور » حتى إذا كان من الصعب شرح ماهيته . وتلتقى هذه الفكرة مع فكرة فرويد الذى كتب بهذا الصدد يقول : « لا حاجة بنا لمناقشة ما نريد أن نقوله عندما نتحدث عن « الشعور » إذ يتعلق الأمر بفكرة واضحة جلية » .

ويقول فرويد فى موضع آخر « نحن نطلق لفظ « لا شعور » على ميكانيكية نفسية نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف بوجودها لأننا نستنتجها من مظاهرها بدون أن نعرف عنها شيئاً . وبعبارة أخرى ، يبدو أنه فى مناسبات معينة نتكلم

ونسلك على نحو يبرهن على وجود ميكانيكيات (حيل) داخلية تتصف بكل سمات الحياة النفسية فيما عدا سمة الشعور .

ولنتأمل مثلا ظواهر «ما بعد التنويم المغناطيسى» التى تثبت بطريقة جلية وجود وقائع نفسية لا شعورية .-

فخلال جلسة تنويم مغناطيسى يتلقى الشخص بواسطة الإيحاء أمراً بالقيام بعمل بعد أن يستيقظ . وعندما يأتى هذا العمل يبدو كما لو كان قد نسى ماجرى خلال الجلسة ، ولكنه يشعر مع ذلك أنه كان مرغماً على إطاعة الإيحاء . فيفتح مثلاً نافذة فى ساعة معينة . وإذا ما سألناه عن سبب ذلك يرد بأن الحجرة سيئة التهوية وهو رد ينم عن أنه لا يشعر أن سبب عمله هو نتيجة الإيحاء الذى تلقاه سلفاً . فالإيحاء حرك سلسلة من الأعمال النفسية انتهت بفتح النافذة . وهذه النتيجة تؤكد حسب رأى فرويد وجود ميكانيكيات نفسية لا شعورية .

وهناك أمثلة أخرى يمكن استخلاصها من الحياة اليومية عن أعمال نفسية يبدو أنها تتم خارج الشعور ، وهى تصوغ ، فى الشعور ، إجابات سريعة لمشاكل تستعصى على البحث الشعورى . فكثيراً ما ننام وفكرنا مشغول بمشكلة وبعد مرور فترة زمنية معينة يظهر الحل كما لو كان العقل جاداً فى التفكيرباستمرار فى المشكلة بدون أن يخطر الشعور بذلك .

فزلات اللسان والقلم وكثير من الأخطاء اليومية تشير أيضاً إلى تعدٍّ على الشعور وتؤكد النظرية القائلة بتولد أعمال نفسية لا شعورية .

ويضرب فرويد مثالا طريفاً على ذلك فى كتابه «علم النفس المرضى للحياة اليومية» [1] . «دعا شخص ثرى غير كريم بعض أصدقائه إلى سهرة راقصة . ومر كل شئ على ما يرام حتى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء ، حيث حان وقت الراحة لتقديم وجبة العشاء المنتظرة . ولكن خاب أمل الضيوف عندما قدمت لهم شطائر صغيرة وعصير فواكه . وكان موعد الانتخابات يقترب وتطرق الحديث إلى المرشحين المختلفين . واحتدم النقاش وتحمس أحد المعجبين بمرشح الحزب التقدمى فقال موجهاً كلامه للمضيف : «يمكن أن يقال عن

(١) Freud : La psychopathologie de la vie quotédienne

« تيدى » الكثير ، ولكن هناك أمراً يقينيًّا وهو أنه يمكن الاعتماد عليه دائماً فى تقديم وجبة شريفة « "Square Meal" » . وكان يريد أن يقول برنامجاً سياسيًّا شريفاً « "Square deal" » . وأغرق الحاضرون فى الضحك فى حين تحرج الضيف والمضيف اللذان أدركا ما وراء هذه الزلة »

وتؤيد النظرية الحديثة فى مادة علم أمراض المجموعة العصبية ، فكرة الأعمال النفسية اللاشعورية . فإذا قبلنا فكرة أن جميع الأحداث النفسية نابعة من نشاط المخ . فإن اكتشاف أن قشرة المخ (اللحاء) (أى قشرة المخ المكونة من ملايين الخلايا العصبية) دائماً فى حالة نشاط يعطى أساساً فسيولوجيًّا لفكرة الأعمال النفسية اللاشعورية . هذا النشاط اللحائى لا ينتهى فى الواقع عند نقاط تعد بصفة مستمرة مقر الشعور ؛ ولا شك أن فرويد الذى طالما تمنى أن تؤكد اكتشافات علم أمراض المجموعة العصبية نظرياته كان يبدى اهتماماً كبيراً بالأبحاث المبنية على معطيات رسام المخ الكهربائى [١] .

كان فرويد يميز بين درجتين فى لا شعور الحياة النفسية . أولاً كان يميز الميكانيكيات النفسية التى برغم كونها لا شعورية يسهل تذكير الشعور بها . ولتعريف هذه الميكانيكيات استعمل اصطلاح ما قبل الشعور Préconsient . فأنا أستطيع مثلاً أن أقول إننى أشعر فى هذه اللحظة بضغط القلم على الورقة وببياض الورق ، وبالموسيقى التى تعزف على البيانو فى الحجرة المجاورة . وإذا ما طلب منى أخى رقم تليفون أتوقف وأتذكره دون جهد كبير . ويصبح هذا الرقم شعوريًّا ، وبنفس المعنى يمكن التحدث عن تحول المعرفة الذهنية اللا شعورية إلى معرفة ذهنية شعورية ، أى أن ما قبل الشعور أصبح شعوريًّا [٢] .

ولكن ليس هذا المعنى للاشعور هو الذى يكون الفكرة الأساسية فى نظرية فرويد . ففرويد يؤيد فكرة أن هناك أعمالاً نفسية لا يمكن أن يتذكرها الشعور إلا بصعوبة كبيرة . وقد اكتشف فرويد هذا اللاشعور عندما كان يحاول أن يحيى ذكريات الطفولة ، فوجد نظاماً مانعاً رادعاً يجهض كل المحاولات الهادفة

---

(١) Electro — encéphalogramme

(٢) Le préconscient est devenu conscient

إلى تحويل العناصر اللا شعورية إلى عناصرشعورية . وقد كتب فرويد فى هذا : « إن نظرية التحليل النفسى تستند فى الواقع على الإحساس بمقاومة المريض عندما نحاول جعله شاعراً بما يكمن فى لا شعوره . ويشهد على صحة هذه المقاومة وحقيقتها كون معاونة المريض للطبيب تتوقف أو تبتعد كثيراً عن موضوع النقاش ، لذا فإن جزءاً كبيراً من ذكريات الطفولة التى نقول عنها « إنها دخلت فى عداد النسيان ، بمعنى أنها ذبلت بمرور الزمن ، تكون فى تصور فرويد قد كبتت . وسنرى فيما بعد السبب الذى من أجله يتم هذا الكبت [١] . والمهم فى النظرية الفرويدية هو أن ذكريات الطفولة هذه ، مع كونها مكبوتة ، تستمر فى ممارسة تأثير هام على التفكير والنشاط اليومى . فالكبت حسبما يراه فرويد هو المرادف السيكولوجى للتركيب الفسيولوجى الذى مؤداه أن الجزء المصاب بمرض يعزل عن بقية الجسم بواسطة غلاف من الأنسجة يحميه .

شبه فرويد فى كتاباته الأولى قوى القمع أو الردع بالرقيب . وكان يقارن العقل ببناء مكون من ثلاثة طوابق . يعيش فى الطابق العلوى أعضاء جديرون بالاحترام من عائلة الشعور ، وفى الدور الأسفل تعيش عائلة ما قبل الشعور ، أناس هادئون مسموح لهم بزيارة جيرانهم القاطنين فى الدور الأعلى . صحيح أن هناك جندياً من « البوليس » يقف على السلالم المؤدية إلى الدور الأعلى ، ولكنه رجل طيب ، من النادر أن يمنع الزيارات . وعلى العكس يشكل سكان الطابق الأسفل « البدروم » مجموعة غير مهذبة ومشاغبة تسعى جاهدة إلى تخطى عسكرى المرور المتعب الذى يقف بينها وبين عائلة ما قبل الشعور . ويقتنص أحد أعضاء عائلة اللاشعور فرصة نوم عسكرى « البوليس » ويلج إلى الطابق الأعلى متخفياً فى صورة غير هجومية ومسالمة . ويصور لنا عساكر المرور بطريقة طريفة القوى الرادعة أو الزاجرة .

ولطالما وجه إلى فرويد اللوم لاستعماله كلمات كانت تبدو منطبقة على وحدات حقيقية داخل العقل مثيرة لصورة عالم غريب له سراديب تسكنه مخلوقات عجيبة شبيهة بالإنسان . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن فرويد أنشأ كتاباته

---

(١) انظر الفصل الثانى .

قبل أن تكون مصطلحات مثل « متغيرات » variables و « نواتج » résultantes جزءاً من لغة علم النفس ولكن فرويد حدد أن هدفه من ذلك كان تقديم تصوير رمزى لجوهر أنشطة العقل . وأعلن أن تصوراته تؤدى الوظيفة نفسها التى تؤديها : تصورات الموجة والإلكترون والطاقة فى علم الفيزياء والتى تهدف إلى تأصيل بعض أوجه التجربة والمعرفة الإنسانية التى قد تبدو مبعثرة فى نظرية معقولة . وقد دافع عن هذه الإيضاحات فى مقدمته لعلم النفس معترفاً بأنها قد تبدو أحياناً فظة .

وقد بدا لفرويد أن تقسيم النشاط النفسى إلى شعور ، وما قبل الشعور ، ولا شعور يعطى صورة استاتيكية جداً للعقل . لذا أدخل بعض تصورات تثير هذا النشاط بطريقة أكثر دقة عندما استعمل تصورات الأنا الأدنى ، والأنا ، والأنا الأعلى ، وهى ما أتعرض لشرحه فيما يلى .

ففكرة الأنا الأدنى أدخلت لتصوير الأوجه اللا شعورية من الحياة النفسية والتى تدخل فى صراع عنيف مع الأفكار التى يقبلها الفرد بسهولة والتى تأتيه من أسرته ومن تجربته فى الحياة الاجتماعية وقد استعار فرويد الاصطلاح المبتكر « ES » من نيتشة ، لأنه بدا له مناسباً تماماً ، باعتباره مشتقاً من الضمير غير الشخصى فى اللغة اللاتينية ، للتعبير عن تنافره مع الأفكار الشعورية . والأنا الأدنى « هو ذلك الشئ الذى يغمرنا عندما نجد أنفسنا مجبرين على التصرف ضد الذوق العام أو النظام القائم ونميل إلى وصف هذه الاندفاعات بجمل من قبيل « كنت مرغماً على » أو « لم أستطع أن أمنع نفسى » ، كما لو كانت أموراً غريبة عن شخصيتنا » .

ويغطى « الأنا الأدنى » الحاجات البدائية الغريزية للطبيعة الإنسانية التى لا تتأثر بالاعتبارات الأخلاقية أو الاجتماعية . وخصائص الأنا الأدنى التى شدد عليها فرويد بصفة خاصة هى : رغبته المطلقة فى الحصول على إشباع ، وفساده ، ومنافاته للأخلاق . وهو يحوى ما سمى بغريزة الحياة وغريزة الموت وكذلك الخصائص الوراثية المتعلقة بالعالم الحيوانى . ومن ناحية أخرى تلتقى بمجرى الأنا الأدنى التجارب المكبوتة لأنها شديدة الإيلام للشعور . ويسيطر على الأنا الأدنى « مبدأ اللذة »

أى أن الأنا الأدنى يطلب إشباعاً مباشراً ومطلقاً بدون أن يشغل نفسه بظروف الزمان أو المكان .

وإذا ما وجد جهاز إنسانى مستكين تماماً لرحمة ميول الأنا الأدنى فإنه سرعان ما يجد نفسه أمام مشكلة ، بل إنه ربما يهلك بسرعة لأن العالم الخارجى لا يعطى إشباعاً مباشراً وغير متوان لرغباته ويتعين عليه تأجيل هذا الإشباع إلى أن تحين الظروف الملائمة التى تسمح بالحصول على الإشباع فى أمان تام .

يسيطر الأنا الأدنى لدى الطفل الصغير لذا يصرخ الطفل لينبه لما يريده . ولكنه يتعلم بالتدريج أن هناك حدوداً لإشباع رغباته . فوالداه لا يستجيبان دائماً بسرعة لما يريد وأحياناً يعاقب إذا ما أبدى رغبة ما . وتؤثر على الطفل التجربة المؤلمة والتى مؤداها أن العالم لا يرضخ بسهولة لرغباته فتحدث تغيراً فى «الأنا الأدنى» الذى يغدو متنبهاً إلى حد ما للعالم الخارجى منبهاً له وشاعراً به . هذا التعديل الذى يطرأ على « الأنا الأدنى » والذى يكتسب بمقتضاه الأنا الأدنى حساسية بالعالم الخارجى أسماها فرويد « الأنا » . ولا نعرف كيف يتم تحول الأنا الأدنى إلى أنا وهوَ مطلب أساسى بالنسبة للنظرية الفرويدية ولكننا يمكن أن نفترض أن صدمة الواقع الخارجى مؤثرة على أساس أنها عامل محدد ، تحرك عملية النضج وتؤدى إلى ظهور شعور ومعقولية فى الحياة النفسية .

إن مهمة الأنا ، حسب تصور فرويد ، هى تضييق طلبات الأنا الأدنى والسعى لإشباعها إشباعاً واقعياً . وبعبارة أخرى تضع فى وجه « مبدأ اللذة » المسيطر على الأنا الأدنى « مبدأ الواقع » وهذا المبدأ ينبع فى الأصل من الأنا الأدنى بهدف العثور على إشباع فى العالم الخارجى . ويقول فرويد « قصارى الكلام أنه يجب على « الأنا » أن ينفذ رغبات « الأنا الأدنى » ويكون قد أدى واجبه عندما ينجح فى العثور على الظروف التى تسمح لهذه الرغبات بأن تتحقق على أحسن وجه . ويمكننا مقارنة علاقات الأنا والأنا الأدنى بالعلاقات القائمة بين الفارس وحصانه . فالحصان يقدم الطاقة الناقلة ويحتفظ الفارس بامتياز تحديد الهدف وقيادة حركات الحيوان القدير . ولكن غالباً ماينشأ بين « الأنا » و « الأنا الأدنى » موقف أقل مثالية من موقف الفارس الذى يجب أن يقود ركوبته

نحو المكان الذى يريد أن يصل إليه »[١] .

نستطيع أن نلخص الخصائص الأساسية للأنا كما يراها فرويد على النحو التالى : الأنا يتحرك باعتباره همزة الوصل بين الأنا الأدنى والواقع الخارجى . وبرغم أن علاقة الأنا بالأنا الأدنى تظل لا شعورية إلا أن علاقاته بالعالم الخارجى تكون شعورية . وتكون محكومة بمبدأ الواقع وهو مبدأ يستغل إمكانيات العالم الخارجى فى مواجهتها لمبدأ اللذة المسيطر على الأنا الأدنى . ومهمة الأنا التى هى طاعة مبدأ الواقع تتكون أيضاً من الاحتفاظ برقابة على إمكانيات الميكانيكيات النفسية التى يمكن أن تخرق قواعد الشعور . ويعبر الأنا عن نفسه بواسطة اللغة .

ومع ذلك فإن الأنا يتكون خلال السنوات الأولى للحياة حيث تكون الصلات العاطفية التى تربط الطفل بوالديه أقوى ما تكون، فأنا الطفل الصغير يكون من الضعف بحيث لا يقدر على مواجهة إلحاحات الأنا الأدنى . هذا الأنا يقوى بفضل سلطة الأبوين . فأوامر وتعليمات هذين الأبوين التى تأتى من الخارج بالنسبة للطفل يسجلها عقله باعتبارها ممنوعات قوية ، وتنشأ عملية توحد[٢] يكون

---

(١) Freud : Nouvelles conferences, p.33

(٢) التوحد Identification : انظر معجم المصطلحات فى مؤخرة كتاب ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية تأليف سيجموند فرويد ترجمة سامى محمود على ومراجعة مصطفى زيور ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ : توحد : من المفاهيم الأساسية التى يستعين بها التحليل النفسى على تفسير نشأة الشخصية وتكونها عن طريق تمثيل الطفل خصائص والديه أو من يقوم مقامهما .

والتوحد يختلف عن المحاكاة اختلافاً جوهرياً . فالمحاكاة عملية شعورية قصدية يضع بها الفرد نفسه مؤقتا موضع فرد آخر فيسلك على نحو ما يسلك دون أن ينتج عن ذلك تغيير جوهرى فى شخصيته . أما التوحد فهو – على الضد – عملية لاشعورية ذات تأثير عميق دائم ، تتشكل به أنية الشخص وفقا لأنية شخص آخر تربطه به رابطة انفعالية قوية . « فالأنا يسعى إلى التشبه بمن اتخذه نموذجاً يحتذيه » .

ويميز التحليل النفسى بين نوعين من التوحد ، التوحد الأولى الذى يحدث فى الأشهر والسنوات الأولى من مراحل نمو الطفل وبه يصبح الطفل ما هو بتمثله شخصية والديه أو بديليهما ، أو كما يقول بولبى : « توصف العملية التى ينمى بها الطفل الأنا والأنا الأعلى لديه فى نفس الآن الذى ينمى فيه قدرته على الاحتفاظ بالروابط الوجدانية فى غياب الغير ، بأنها عملية توحد أو استبطان أو إدماج من حيث إن وظائف الأنا والأنا الأعلى تدمج فى الشخصية وفقاً لنمط يخلقه الوالدان » . وتلقى هذه التوحدات المبكرة وما يعتريها من اضطراب يفضى إلى المرض اهتماماً خاصاً من جانب المحللين النفسيين فى الوقت الحاضر .

أما النوع الثانى من التوحد فهو التوحد الثانوى الذى يحدث فى أعقاب التوحد الأولى ويكون الدافع إليها عادة تجنب القلق المرتبط بموقف نفسى معين . فهو من ثمة حيلة دفاعية وعملية نفسية مسئولة عن =

من مؤداها أن طرق وجود وتصرف الوالدين تدون فى عقل الطفل . وميكانيكية هذه العملية شديدة التعقيد شبيهة بواقعة محاكاة شخص نحبه ونخشاه فى آن واحد ويتم على مستوى اللا شعور . وقد وصف فرويد هذه العملية مثل عملية إدماج[1]

= تكوين الأعراض المرضية لاسيما فى الهستيريا . ومن النوع الأخير ما تسميه «أنا فرويد» «بالتوحد المعتدى» وفيه يسيطر الطفل على مخاوفه من شخص أو موضوع بتوحده به ، فيتحول المهدّد إلى شخص يهدّد» .

كذلك يقوم التوحد بدور هام فى النمو العقلى لدى الطفل وفى اكتشافه ما يجهل من موضوعات العالم الخارجى . وقد درست « آليس بالنت » « التفكير التوحدى » لدى الأطفال وبينت كيف يستخدم الطفل خبرته المباشرة بجسمه نموذجاً يتصور على نمطه الموضوعات الجديدة التى لم يألفها بعد « مثال ذلك أن الطفل الصغير يعد أى كتلة غليظة من المادة براز وأى سائل بول ،لأن البراز والبول أشياء له بها ألفة سابقة » . المترجمة

(١) إدماج Interojection . المرجع السابق ص ١٦٥ ، ١٦٦ : الإدماج عملية نفسية لا شعورية تشير إلى تمثل شخص موضوعاً ما تمثلا خيالياً بحيث يصبح جزءاً من الأنا أو الأنا الأعلى لديه . ويصف فيرنزى هذا المفهوم الذى يرجع إليه الفضل فى وضعه فيقول : « لكى نفهم الطابع الأساسى للمرضى العصابيين فهماً أفضل ، لابد من المقارنة بين سلوكهم وسلوك مرضى الجنون المبكر والبارانويا . فالمجنون يفصل اهتمامه عن العالم الخارجى فصلا تاماً ويصبح عاشقاً لذاته (يونج و إبراهام) ويود مريض البارانويا لو فعل بالمثل — كما بين فرويد ولكنه لا يستطيع ، فهو يسقط projecte على العالم الخارجى الاهتمام الذى أصبح عبئاً عليه . والعصاب على نقيض البارانويا من هذه الوجهة . فبينما يبعد مريض البارانويا عن الأنا لديه الحوافز وقد غدت مؤلمة ، يسعف العصابى نفسه بتمثله فى ذاته أكبر جزء ممكن من العالم الخارجى ، حاملا عنه موضوعاً لأخيلته اللاشعورية. ذلك ضرب من عمليات التخفيف يحاول بها تلطيف شدة النوازع والرغبات اللاشعورية المنطلقة بدون إشباع . ويمكن تسمية هذه العملية بالإدماج ، فى مقابل الإسقاط projection .

فالعصابى لا يفتأ يبحث عن موضوعات يتوحد بها وينقل إليها مشاعره ويدخلها فى نطاق اهتماماته ، أى يدمجها فى ذاته . وفى مريض البارانويا يسعى سعياً مماثلا إلى موضوعات تصلح للإسقاط الذى يولد لديه شعوراً مؤلماً . وأخيراً يتجلى التضاد فى سمات الخلق : فالعصابى كبير القلب ، سريع التأثر والاستثارة يتأجج فى سهولة حباً للعالم أجمع أو يدفع إلى كراهية العالم قاطبة بينما يكون مريض البارانويا صغير النفس ، متريباً ، يعتقد أن الناس جميعاً يراقبونه ويضطهدونه أو يحبونه . فالعصابى يعانى من اتساع الأنا ومريض البارنوايا يشكو .

والإدماج من العمليات النفسية المميزة للمراحل الأولى من النمو النفسى ، ونموذجها الأصيل هو الابتلاع وما يتسم به من معان رمزية ويعد الإدماج والإسقاط حيلتين نفسيتين مسئولتين عن تفاضل الأنا عن العالم الخارجى وتحديد الخطوط التى تفصل بينهما. وقد توسعت «ميلانى كلاين» فى دراسة هذه المراحل المبكرة من النمو النفسى وأبرزت دور الإدماج والإسقاط فى العلاقات الأولى بالموضوعات .

ويلاحظ أن « أبراهام » يطلق على العملية ذاتها اسماً مختلفاً هو Incorporatiom . المترجمة

أو استدخال سلطة وتأثير الوالدين (والأشخاص البالغين الآخرين الذين يلعبون دوراً هامًّا فى حياة الطفل) .

ويكوِّن الوالدان اللذان تم إدماجهما أو استدخالهما ما يسميه فرويد الأنا الأعلى . فالأنا الأعلى هو إذن تعديل يطرأ على الأنا فى لحظة معينة يكون فيها هذا الأنا من الضعف بحيث لا يقدر بمفرده على مواجهة كل من مشاكل وإلحاحات الأنا الأدنى من ناحية والواقع الخارجى من ناحية أخرى . ويعد هذا نوعاً من تصور الأبوين والأشخاص الآخرين داخل العقل ، تصويراً يجد نفسه مزوداً بصفات مبالغ فى أهميتها ، حتى إن الوالدين يظهران فى أعين الطفل متمتعين بصفات القدرة والقسوة ، أى الصفات اللصيقة بأى سلطة لا منازع لها .

وربما بدت نظرية فرويد لأول وهلة غريبة بالفكرة التى تعطيها عن نمو الحياة النفسية . وفكرة الأنا، الذى يتوحد فى جزء منه بالوالدين والبالغين والذى ينمو ابتداء من إحساس مبالغ فيه عن السلطة الأبوية كما تتكون فى عقل الطفل، يمكن أن تبدو كأسطورة عجيبة . ولكن ماذا تعنى هذه الفكرة فى صلبها ؟ إنها تعنى أن تأثير الأبوين والأشخاص البالغين يلعب دوراً هامًّا فى حياة الطفل، بطريقة لم نصل بعد إلى فهمها بل إن هذه الفكرة تستمر مع الطفل بعد أن يكبر وذات فاعلية خلال حياته كبالغ . إن فكرة الأنا الأعلى ضرورية لفهم دوام استمرار المواقف الراجعة إلى فترة الطفولة خلال حياة البلوغ ، وهى مواقف قهرية تذهب إلى أبعد مما يمكن أن يعقله أو يتخيله الإنسان . ويكفى أن نذكر بعض الفظائع التى كانت بعض الشعوب مندفعة لارتكابها (مثل النازيين الذين اعتبروا أنفسهم ملزمين بتحطيم اليهود) . إن التاريخ السياسى والدينى ملىء بأمثلة من القسوة التى ارتكبت بواسطة أشخاص يعتقدون أنهم كانوا يؤدون واجبهم . وتطلب منا النظرية الفرودية أن نتقبل أن نفسية كثير من البالغين، إن لم يكن كلهم ، تكونت فى مجموعها ابتداء من تصرفات ونماذج ترجع إلى فترة طفولتهم حيث لم تكن ملكة النقد قد بدأت تمارس عملها لديهم وأن هذه التصرفات والنماذج استمرت فى ممارسة تأثيرها القهرى إبان حياة البلوغ .

ولنشرع الآن فى فحص لوحة الحياة النفسية كما تقدمها لنا النظرية الفرويدية .

إذا ما نحينا جانباً الاصطلاحات الخاصة التى تصاحبها فإننا نستطيع أن نؤكد أنها سلسلة من ردود الفعل بين النشاط النفسى والعالم الخارجى . إن ما يسميه فرويد « الأنا » هو صفات الشعور أو الإحساس، التى تزداد دقة، بالعالم الخارجى وإمكان التوفيق بين الحاجات الداخلية والإمكانيات الخارجية التى يمكنها إشباع هذه الحاجات . إن مثل هذا النمو للحياة النفسية يحدث فى الواقع ، وهو أمر تؤكده الحياة اليومية ؛ وكون الأطفال يتعلمون كيف يتكيفون مع متطلبات الواقع الخارجى لهو عامل من عوامل النمو الإنسانى الذى لاحاجة بنا إلى تأكيده . إن المساهمة الفرويدية تلقى ضوءاً على المراحل شديدة التعقيد التى يحدثها النمو . إذا كان التطور ابتداء من لامعقولية وخضوع الطفولة لايعدو أن يكون اكتساباً للصفات المعقولة التى تميز عقل البالغ المستقل ، لما كانت بنا حاجة للجوء إلى أبحاث التحليل النفسى .

وفى رأيى أن النظرية الفرويدية يمكن أن تكون عرضة للانتقاد عندما تصف العلائق بين الأوجه الشعورية والأوجه اللاشعورية من الحياة النفسية . إذ أن النظرية التحليلية النفسية تعرضه أحياناً كما لو كان « الأنا » يرضخ تماماً للأهداف اللاشعورية ، ويعجز تماماً عن ممارسة رقابة مستقلة على هذه الأهداف . وبعبارة أخرى يبدو أحياناً أن النظرية الفرويدية ترى أن عقلنا خاضع تماماً لسيطرة الأهداف العاطفية الهوائية ؛ وهدفها الوحيد هو العثور على مخارج فى العالم الخارجى لحاجاتنا العاطفية ، مخارج فى منأى عن تسبيب صراعات مع الأفكار المقبولة فى المجتمع بصفة عامة . وطبقاً لهذا التفسير لايمر نمو العقل والشعور بمرحلة يحدث خلالها تعديل فى طبيعتهما . فالشعور ليس إلا امتداداً لجوهر اللاشعور دائب البحث عن التعبير عن الميول اللاشعورية عن طريق استعمال الإمكانيات المسموح بها .

حقاً إن الإنسان أقل معقولية بكثير مما يتصور كما أنه يميل إلى استخدام ملكاته الشعورية لتحقيق أهداف بعيدة عن أن توصف بكونها معقولة . ويكفى التذكير بالمناسبات العديدة التى استخدم فيها العلم للتحطيم والقتل للتحقق من أن العقل أسير اللامعقول . ولكن وجود علوم مثل علوم النفس والتحليل النفسى

يثبت أن عبودية العقل للامعقول ليست مطلقة . إن العبد الذى لايعرف أنه عبد والذى يقبل مصيره كما لو كان شيئاً طبيعيًّا سيظل عبداً إلى الأبد . إن الشرط الأول للانتفاضة والثورة على أى شكل من أشكال العبودية هو الاعتراف بوجود العبودية . ويصدق هذا أيضاً على خضوع عقلنا لأهداف لامعقولة أو خضوع الأنا للأنا الأدنى . عندما يفهم الإنسان، وهو ما بدأ يفعله، إنه يستخدم عقله لتحقيق أهداف لا معقولة، يكون قد خطا الخطوة الأولى لإنهاء هذا الخضوع .

وحرى بنا أن ننبه أن فرويد وإن كان يؤكد ضعف الأنا وخضوعه ، كان فى نفس الوقت غير متشائم فيما يتعلق بعلاقة الأنا بالأنا الأدنى . إذا تحامل فى أحد مؤلفاته على المحللين النفسيين الذى يصرون على تأكيد ضعف الأنا بل وأكد أن الأنا له سلطة رقابة على النفسية . إذ يقول « يحق التساؤل إذن كيف يمكن التوفيق بين الاعتراف بسلطة الأنا وبين وضع الأنا كما وصفناه فى كتاباتنا عن الأنا والأنا الأدنى حيث وصفنا الأنا بأنه خاضع لكل من الأنا الأدنى والأنا الأعلى وأنه ضعيف معرض للقلق فى مواجهة هذا وذاك وكشفنا النقاب عن الوضع الظاهرى للخضوع الذى يعانى الأنا من أجل الحفاظ عليه وقد كان لوجهة النظر هذه صدى واسع فى مؤلفات التحليل النفسى . إن العديد من الأصوات ترتفع لتأكيد ضعف الأنا حيال الأنا الأدنى ، وضعف العقل فى مواجهة الشيطان الذى يكمن فينا وتجتهد لتجعل من هذه النظرية دعامة « نظرة التحليل النفسى للعالم » ومع ذلك ألا يمكن للفكرة التى حصلها المحلل النفسى عن الطريقة التى يتم بها الكبت أن تجعله يمتنع عن تبنى موقف متطرف ؟ »[1]

ولكن برغم التشاؤم الذى يخيم على أغلب كتابات فرويد ونظرية التحليل النفسى التى تعرض الإنسان بشكل استاتيكى ، فإن فرويد كان يعترف بقيمة تطور الأنا . ومن ناحية أخرى فإن كُتَّاباً مثل فروم وهورنى أعادوا النظر فى نظرية التحليل النفسى من وجهة نظر اجتماعية موفقين بينها وبين فكرة أن الأنا له صفات لايمكن ردها إلى الأنا الأدنى . وقد كتب فروم : « إن مشكلة علم النفس الأساسية هى صلة القرابة بين الفرد والعالم وليس إشباع غريزة

(١) S. Freud : Inhibition, symptôme et angoisse P.U.F.,P. 11

أو الحرمان منها »[١] ومن ناحية أخرى فإن محللا نفسانيًّا قويًّا مثل الدكتور إرنست جونز كتب فى عام ١٩٥٩ يقول :

« إن أحد مبادئ التحليل النفسى هو أن الإنسان أولاً وقبل كل شيء مخلوق اجتماعى ؛ ولذا فإن محاولات تقسيم علم النفس إلى علم نفس اجتماعى وعلم نفس فردى هى محاولات خيالية . بمعنى أن عقل الإنسان يتكون فى مجموعه ابتداء من ردود فعل تنشأ بينه وبين أعضاء آخرين فى المجتمع ولايمكن تطور فرد مكون على نحو مختلف عن ذلك[٢] » .

إن « صلة القرابة » بين الإنسان والعالم تظهر فى وعيه الاجتماعى وهو وعى بعلاقاته ومسئولياته حيال الآخرين . هذا الوعى لايتدخل للأسف إلافى نطاق ضيق خلال الحياة إذا أخذنا فى الاعتبار التأثير الذى تمارسه علينا المواقف الخيالية من أى معنى "positionsabsurdes" التى تأتينا من الطفولة . ونتيجة لهذا ، وهو ماسأفصله فى الفصول التالية ، فإنه من الضرورى ، قبل البدء فى التفكير الاجتماعى والسياسى ، ألا نهمل واقعة أن الكثير من الأوجه الهامة لعلم النفس الإنسانى توضح أن الرجال والنساء لم ينجحوا فى التخلص من العادات وأنماط التفكير التى ترجع إلى فترة الطفولة .

---

(١) E. Fromm : Man for himself, Routledge, 1949.

(٢) Frnest Jones : Free Association, Hogarth Press, 1959, P. 153.

٢ ـ النظرية الفرويدية فى الجنس

يقوم الأنا بمهمة صعبة هى التوفيق بين الميول الغريزية وبين ضرورات الواقع . وبذا يكون تصرف الشعور نتاج التأثير المتبادل بين ميول الغريزة والواقع الخارجى الذى يؤدى إلى وضع حدود لهذه الميول وينكر حقها فى الإفصاح عن نفسها بحرية .

ليس هدفى أن أدرس هنا طبيعة هذا الواقع الخارجى الذى يكوّن الوسط الذى يعيش فيه الإنسان ، ولكن هدفى يتجه إلى عرض نظرية التحليل النفسى عن الغرائز فى خطوطها العريضة وربما بدا أن هذا العرض يوجه اهتماماً كبيراً لدور الغرائز ، ولكن هذا الاهتمام ضرورى حتى لا نقلّل من أهميتها عندما يأتى دور دراسة الظروف التى تفصح فيها هذه الغرائز عن نفسها .

توجد تعريفات عديدة للغرائز . وبصفة عامة ينظر إليها باعتبارها ميولاً فطرية أساسية ذات علاقة بالمحافظة على الفرد وعلى النوع . ويقول فرويد : « نستطيع أن نميز فى الغريزة مصدراً وموضوعاً وهدفاً . فالمصدر هو حالة إشارة فى الجسم ، والهدف هو القضاء على هذه الإشارة . وعند ما تسير الغريزة من المصدر إلى الهدف تصبح نشيطة نفسياً . ونتصورها كما لو كانت كمية معينة من الطاقة تتجه نحو هدف معين »[١] .

حاول بعض علماء النفس رسم قائمة للغرائز ، ولكن بدا لفرويد أن هذه التصنيفات لا تطابق تماماً الطبيعة الحقيقية لحياة الغرائز . ولذا فقد كتب : « إنكم تعلمون بأى طريقة يفهم الجنس البشرى الغرائز . إذ يقبل عدداً من الغرائز بقدر الحاجات ـ غريزة السيطرة ، وغريزة المحاكاة واللعب ، والاجتماع وكثير غيرها . وتؤخذ هذه الغرائز ، باعتبارها مسلمات ، وتترك كل غريزة تقوم بعمل خاص ثم يتخلى عنها . وكان لدى الجميع دائماً إحساس بأن وراء هذا العديد من الغرائز الصغيرة المؤقتة يختبئ شىء هام وقوى لا نستطيع الاقتراب منه إلا بحذر »[٢] .

---

(١) Freud : Nouvells conférences, p. 103

(٢) Freud : Nouvelles conférences, p. 101, 102.

وقد ذهب فرويد فى محاولته للبحث عما وراء تعدد التعبير عن الغريزة إلى التمييز بين مجموعتين مختلفتين من الغرائز : غريزة الحياة التى سماها ايروس Eros وغريزة التحطيم والموت .

سنعود إلى هذا التمييز فى ختام هذا الفصل ، أما الآن فسندرس الميول الجنسية التى تحويها غريزة الحياة Eros والتى تقابل من الناحية البيولوجية ضرورات توالد النوع .

وقد قوبلت آراء فرويد عن الغريزة الجنسية بمعارضة شديدة عندما قدمها لأول مرة . وكان من الصعب أن يتوقع رد فعل مخالف . ففكرة فرويد عن الإحساسات المكبوتة فى اللاشعور وكونها نابعة من الطفولة والجنس لم تكن فى الواقع مطابقة لقواعد الشعور ولذا لم يكن الدفاع عنها إلا ليلقى حكماً عنيفاً بالإدانة .

ويعنى لفظ جنسى Sexuel عند فرويد « طاقة الغرائز المعروفة باسم « حب » "Amour" . من ناحية حب الذات ومن ناحية أخرى الحب الذى نكنه للوالدين وللأطفال وللإنسانية بوجه عام وكذلك التعلق بموضوعات عيانية أو بأفكار مجردة » .

فالمعنى الذى يعطيه لهذه الكلمة يتعدى بكثير الاستعمال الدارج لها والذى لا يستخدمها إلا لوصف علاقات البالغين والتى تجد ختامها فى العمل الجنسى ، أما التعبيرات الأخرى التى وصفها فرويد فيمكن أن تأتى من أى غريزة أخرى . فالدكتور ماجدوجل مثلاً ينسب حب الوالدين لأطفالهما إلى « غريزة الحنان » .

ويسيء فرويد وبصورة أشد إلى التقاليد المتفق عليها عندما ينسب للطفل حياة جنسية منذ أيامه الأولى . فبالنسبة له رغبة امتلاك الطفل لوالده من الجنس الآخر ، وشوقه للملاطفات ، والسعادة التى تغمره عندما تحتويه الأذرع ، وسروره عندما يمص إبهامه ، وغضبه عندما نشده منه ، واللذة التى يحسها عندما يدغدغ تعد كلها علامات واضحة على حياة جنسية مبكرة .

وتسيطر الغرائز المكونة للجنس فى الحياة الجنسية للطفل الصغير ولكل غريزة من هذه الغرائز وجود مستقل عن الأخرى تبعاً لطريقة إشباع كل منها وخلال النمو الجنسى يتم اندماجها واتساقها ، ولكن تسيطر أحياناً غريزة واحدة على الحياة

الجنسية للبالغ ، مجبرة إياه على البحث عن إشباع جنسى ذى طابع طفلى . وتبعاً للنظرية الفرويدية يكون الفساد هو الاحتفاظ خلال سن البلوغ بطريقة سلوك طفلية .

يركز فرويد فى وصفه للغرائز المكونة للجنسية بوجه خاص على الغرائز المتجمعة حول المناطق الفمية والشرجية من الجسم . ولذا فإن عملية المص والعض تعد إظهاراً لإشباع جنسى مبكر . وقد فصل كتاب آخرون فى مجال أبحاث التحليل النفسى ملامح الخلق الفمى الجنسى لدى الطفل وربطوها بالطريقة التى يتم بها إشباع الحاجات الجنسية عند الطفل فدراسات أبراهام وجلوفر مثلا ، تجعلنا نعتقد أن الإشباع أو الحرمان الفمى فى فترة الطفولة يؤدى إلى تكوين خلق إشباع أو حرمان فيما يتعلق بالشكل الفمى . فالذين حصلوا على إشباع يكونون متفائلين كرماء اجتماعيين ، مرحبين بالأفكار الجديدة ؛ فى حين أن المحرومين يصبحون متشائمين ، متقوقعين ، قلقين ، وسلبيين . وقد قامت الدكتورة فريدا جولدمان أيسلر بدراسة الاستقطاب المزدوج[1] عند نمو الخاصية الشفوية

---

(١) ازدواج الاستقطاب : Bipolarité . والاستقطاب Polarité كما ورد شرحه فى كتاب ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية ، المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ : تتسم الحياة النفسية كما تتصورها نظرية الدوافع الغريزية لدى فرويد بوجود ضروب من الثنائية ، تحدد للفرد إمكانيات نموه ، وتجعل من مفهوم الصراع النفسى مفهوماً أساسياً نصف على هديه التطور النفسى فى صوره السوية والمرضية على حد سواء . والحياة النفسية تخضع لثلاثة أنواع من الثنائيات أو الاستقطاب ، هى التقابل القائم بين الذات (الأنا) والموضوع (العالم الخارجى) ، وبين اللذة والألم وبين الإيجابية والسلبية . يقول فرويد : « إن التقابل بين الأنا واللا أنا (الخارج) أى بين الذات والموضوع ، يفرض نفسه على الفرد منذ ساعة مبكرة حين يدرك هذا الأخير أنه يستطيع أن يقضى على التهيجات الصادرة من الخارج بتحريك عضلاته ، ولكنه يظل بلا حيلة إزاء التهيجات الصادرة عن الغريزة . ويتحكم هذا التقابل فى مجال النشاط العقلى على وجه التخصيص ويمد البحث بموقف أساسى لا يستطيع أى قدر من الجهد تعديله . أما الاستقطاب الخاص باللذة والألم فرهن بسلسلة من المشاعر لها أهميتها التى لا تقدر فيما يتعلق بتجديد أفعالنا (الإرادة) . ولا ينبغى الخلط بين المتضادين : النشاط والسلبية وبين المتضادين الأنا — الذات ، والموضوع — الخارج فالأنا يسلك من العالم الخارجى مسلكاً سلبياً عندما يتقبل منه التهيجات ومسلكاً إيجابياً عند ما يرد عليها . ودوافعه الغريزية تجبره على القيام بقدر من النشاط الخاص بالنسبة للعالم الخارجى ، بحيث يمكننا إبراز لب الموضوع فى قولنا إن الأنا — الذات سلبى بالنسبة للمنبهات الخارجية وإيجابى بفصل دوافعه الغريزيه الخاصة به . والمتضادان الموجب والسالب يمتزجان فيما بعد بالمتضادين المذكر والمؤنث اللذين لم يكن لهما من قبل دلالة سيكولوجية . والتصاق الإيجابية بالذكورة والسلبية بالأنوثة يبدو لنا واقعة بيولوجية ولكنها ليست البته قاطعة على الدوام ولا هى بالنهائية كما قد نجنح للاعتقاد .

مستعملة سلالم للتقييم واستجوابات ، وتابعت دراسة أجريت على ١١٥ بالغاً ويبدو أنها تحققت فيها من معامل استقطاب مزدوج يشير إلى ترابط واضح بين الخلق الفمى التحليلى النفسى كما وصفها كل من أبراهام ، وجلوفر ، وجونز وبرجلر (١) .

إن إثارة منطقة الجسم المحيطة بفتحة الشرج هى صورة الإشباع التى تبحث عنها مجموعة أخرى من الغرائز المكونة للغريزة الجنسية ومن المسلم به أن الموقف الذى يتخذه الوالدان والطفل حيال وظائف الإخراج له تأثير أكيد على نمو أخلاقه فى المستقبل . فالطفل يتعلم أن والديه يعطيان لوظيفة الإخراج أهمية ويتولد لديه نتيجة لذلك شعور قوى بقدرته على إرضائهما أو تخييب ظنهما . والفضلات التى يخرجها الجسم هى أول شىء يستطيع الطفل أن يقدمه للعالم ، ويتفق المحللون النفسيون على أن ردود فعله المستقبلة فيما يتعلق بمشاكل النقود والعلاقات الإنسانية والعلم وكذا فى مواجهة الفن والحياة بصفة عامة يمكن أنَ تكون متأثرة بالموقف الذى يتخذه الطفل الصغير حيال ميكانيكيات إخراج الفضلات .

ربما بدا هذا التفسير مفتعلاً وبعيداً عن الواقع ، ولكن يجب ألا ننسى أن العام الثانى من حياة الطفل مخصص لتعليم النظافة وأنه فى سبيل ذلك يستحث الوالدان الطفل أو يمتدحانه أو يعاقبانه . ويتعلم الطفل كيف يعبر عن عدم ثقته بأمه عن طريق الإمساك عن التخلص من الفضلات . ويتخذ هذاالميل إلى الإمساك فيما بعد شكل عامل شخصى يدفع الشخص إلى تجميع المال أو إلى العناد أو إلى البخل ، على حين أن الإقدام على هذا العمل لإرضاء الوالدين فضلاً عن كونه يحدث لذة عضوية ، يتحول إلى كرم وسخاء أو إلى نشاط خلاق فى مجال الفنون أو الرسم أو الأدب أو الخطابة .

وقد حاول البعض التحقق من النظرية الفرويدية فيما يتعلق بملامح الخلق الشرجى تماماً كما حدث بالنسبة لملامح الخلق الفمى . والنتائج التى تم التوصل

---

(١) Freida Goldman Eisler, Breast feeding Personality in Natutre, Society and culture, éd. Kluckhonhn & Murray, New York, Khopf, 1959.

إليها ليست واضحة تماماً إلا أنها تتجه بشكل مؤكد إلى إثبات صحة النظرية الفرويدية[١].

إن تجميع الغرائز الأساسية الذى وصفناه منذ برهة ، يتم عندما يكبر الطفل ، تحت سيطرة الدوافع التناسلية . وعند البالغ المتوازن . تنشأ هذه الدوافع من الغرائز المكونة للغريزة الجنسية ، وهذه لا تساعد إلا على القيام بالعمل الجنسى وللوصول إلى هذا المستوى ، تمر الدوافع الجنسية بمرحلة نمو سنشرع فى دراستها الآن .

إن النمو الجنسى يعبر مرحلتين أساسيتين تفصلهما فترة من الكمون لا يتم خلالها من الناحية العملية أى نمو . وحسبما يرى فرويد يكون المستوى الأول أكثر أهمية لأنه يرسم الملامح التى تحدد كيف سيتم إعادة تنشيط الدوافع الجنسية فى المستقبل هذه المرحلة تجد مكانها بين الطفولة المبكرة وسن خمس سنوات وتنقسم إلى ثلاثة مستويات . وخلال كل مستوى من هذه المستويات تلعب إحدى الغرائز المكونة دوراً بارزاً .

وتسمى المرحلة الأولى مرحلة الحب الذاتى auto — érotique وتبدأ منذ الأسابيع الأولى للطفولة ، حيث لا يتصور الطفل بعد أنه فرد . وتبحث كل من الغرائز المكونة للغريزة الجنسية عن إشباع بطريقة مستقلة وتقتصر الحياة الجنسية للطفل على اللذات الحسية النابعة من تنبيه جسده . ونظراً لأهمية المص فى هذه السن تبدو الغريزة الأساسية الفمية أكثر وضوحاً وخلال العام الثانى من حياة الطفل ينمو إدراك الطفل . وتأخذ الغريزة الجنسية الكائن ذاته موضوعاً للحب .

---

(١) فى دراسة هالا بلوف Halla Belloff المعنونة : تكوين وأصل الخاصية الشرجية

"The Structure and Origin of the anal Character"

نجد بعض النتائج الهامة التى تثبت ملاحظاتها . حيث أجاب ٧٥ طالباً على مجموعة أسئلة مكونة من ٢٨ نقطة متعلقة بملامح الخاصية الشرجية واستخلصت من ذلك نتيجة ذات معنى متصلة بفكرة فرويد عن نفس الموضوع . سنرى فيما بعد النطاق العلمى للنظرية الفرويدية وإمكانيات التحقق منها تجريبياً ، ولكنى أود هنا أن أشير أن النظرية الفرويدية مثلها مثل أى نظرية فى مجال العلوم الإنسانية لا تحظى إلا بقدر ضئيل من القدرة على التنبؤ وبالتالى فإن إمكانية إخضاعها للتجربة تضعف . إذ تتدخل كثير من العوامل المتغيرة التى يصعب إخضاعها لرقابة شديدة وهو ما يحتمه الاختبار التجريبى . فكما سنرى للنظرية الفرودية دوراً تأصيلياً يوضح كيف يمكن ربط الأوجه المختلفة للتجربة الإنسانية . ومع ذلك فإن البحث عند ما كان يتيسر إجراؤه لم ينقض مبادئ النظرية .

ولذا سمى فرويد هذه المرحلة بالمرحلة النرجسية Le Stade Marcissique مستعيراً الاسم من الشخصية الأسطورية التى وقعت فى غرام صورتها .

ويسهل الانتقال من مستوى الحب الذاتى auto–érotique إلى هذا المستوى إصرار الأم على تنشئة الطفل على النظافة فى حين أنها تغاضت حتى ذلك الحين عن عجزه عن التحكم فى عملية إخراج الفضلات . ويكتسب الطفل شعوراً بالقوة يبدو من تصرفه الأهوج المعربد الذى يتعاجب به ، فهو يميل إلى الجرى عارياً لإظهار جسده .

أما أشد المستويات حساسية فهو المستوى الثالث . إذ ينحرف اهتمام الطفل عن نفسه ليبحث عن موضوعات خارجية يوجه إليها طاقة الحب لديه . وبديهى أن يكون أول موضوع يثير انتباهه هو الأقرب إليه أى أسرته . ومن هنا تتولد لديه ، ما يسميه فرويد ، عقدة أوديب complexe of œdipe نسبة إلى مسرحية سوفوكل التى قتل فيها أوديب أباه دون أن يعرف وتزوج أمه ، تحقيقاً لنبوءة . وقد وصف فرويد هذه العقدة على النحو التالى : « أريد أن أتكلم عن هذا التنافس العاطفى الذى تلعب فيه العناصر الجنسية دوراً واضحاً . عندما يكون الابن طفلا صغيراً يبدأ فى إظهار حنان خاص حيال أمه التى يعدها ملكاً له ومن هذه الزاوية يرى أن أباه منافس ينازعه فيما يقدر أنه ملك له وحده . وكذلك الحال بالنسبة للفتاة الصغيرة التى ترى فى أمها شخصاً يعرقل علاقاتها العاطفية مع أبيها ويحتل مكاناً تقدر أنها تستطيع ملأه بنفسها . وتظهر أحلام العديد من الأشخاص أمنية إبعاد الوالد من نفس جنس الحالم » .

ويجد الطفل نفسه ملزماً بالحد من ميوله العدائية والودية لأنه يرى نفسه فى مركز أدنى فى علاقاته بوالديه . ويقدر فرويد أن هذا أمر ضرورى بالنسبة لتكيف الطفل مع أسرته وكذلك لتكيفه فى المستقبل مع مجتمعه. وسنرى فيما بعد أنه يجب العثور على مخارج لهذه الميول يرتضيها المجتمع . ولكى يصبح كبت هذه الميول واقعياً يجب السماح لها بالإفصاح عن نفسها بطريقة أخرى ، أى يجب العثور على مخارج للبالغ تتمكن بها الطاقة العاطفية لهذه الميول المتصارعة من التسرب .

ويؤيد فرويد فكرة أن كبت هذه الميول ، الذى يصل إلى طمس عقدة أوديب

يعود إلى النشاط من جديد عن طريق إنماء عقدة الخصاء . Complexe de castration ويقول فرويد : « كثيراً ما يحدث أن يعمد الوالدان أو المربية إلى تهديد الطفل ، الذى لم يتعلم بعد أنه يجب أن يخفى عملية إخراج الفضلات من الجسم ، يعمدون إلى تهديده بقطع العضو الذى يقوم بهذه العملية أو اليد إذا ما لعبت بهذ العضو » ويلاحظ فرويد أن الأبوين لا ينكران فى أغلب الأحيان أنهما عمدا إلى هذا التهديد ولكن على أى حال من الممكن أن يتخيل الطفل عقاباً من هذا النوع مدركاً أن إشباع غريزة حب الذات ممنوعة . وبذا يمكن أن تتولد فى مخيلة الطفل عقدة الخصاء ، والخوف من سلبه القضيب .

وترتبط عقدة الخصاء عند الفتيات الصغيرات بالشعور بالحرمان من القضيب فالفتاة تكتشف بسرعة الفارق الجسمانى بينها وبين الولد ويولد لديها هذا حسبما يرى فرويد شعوراً بالنقص لا يعوضه إلا القيام بأعمال نسائية مثل الأمومة وتشييد بيت إلخ . ويوجد فارق بين الجنسين فى الدور الذى تلعبه عقدة الخصاء . فعلى حين تؤدى عقدة الخصاء عند الولد إلى اختفاء عقدة أوديب ، يحدث العكس تماماً لدى الفتاة ، إذ تسبق عقدة الخصاء عقدة أوديب . والسبب فى ذلك أن الفتاة . مثل الفتى ، ترتبط أولا بأمها لأنها ترعاها وتغذيها . ولكن عندما تكتشف الفارق بينها وبين الولد ، تجد نفسها أقل وتلقى باللائمة على أمها ، وتنمى بذلك شعوراً عدائياً نحوها وتجد ملجأ فى عقدة أوديب .

وبديهى أن تؤدى نسبة رغبات جنسية إلى الأطفال الصغار بل وذات طبيعة محرمة إلى إثارة شعور بالاحتقار والامتهان بمجرد ظهورها . وقد وجهت لهذه الفكرة انتقادات شديدة بواسطة علماء الأجناس ، مثل مالينوفسكى ، الذين لا يضيرهم نسبة حياة جنسية للأطفال الصغار وإنما لا تؤدى دراستهم للمدنيات المختلفة إلى تأكيد أوجه هامة من النظرية الفرويدية . إذ ينتقد ماليتوفسكى فى كتابه « الجنس وقمعه فى المجتمعات البدائية »[1] فكرة عقدة أوديب باعتبارها عاملاً عالمياً يوجد فى كل المدنيات الإنسانية . صحيح أنه لم يتعمق فى العلاقات

---

(١) Malinowski : La sexualité et sa repression, Traduction française, Paris, P.B. Payot No. 95

العائلية لسكان جزر تروبريون Iles Trobriand التى كان يدرسها . وأن فرويد أدخل تعديلاً على تصوره لعقدة أوديب عندما فصل أفكاره عن الأنا والأنا الأعلى والأنا الأدنى . إذ يبدو أن عقدة أوديب « تنهار » مع نمو الأنا الأعلى على أساس أن الأنا الأعلى ميكانيكية إدماج تحل محل الأبوين والأشخاص الأخرى التى تلعب دوراً هاماً فى حياة الطفل .

واعتماداً على التجربة أعتقد أنه فى الإمكان أحياناً أن نستخلص لدى الطفل تفضيلاً للوالد من الجنس العكسى وهو ما يبدو تأكيداً غير مباشر لفكرة عقدة لدى أوديب. ولكننى أعتقد أنه من الصعب أن نقول إلى أى مدى ينمو هذا التفضيل الطفل تلقائياً أو اعتماداً على اهتمام الوالدين . إذا كان الوالد يهتم بابنته الصغيرة أكثر من اهتمامه بابنه الصغير وتهتم الأم بابنها الصغير أكثر من بنتها فلا عجب أن يستجيب الأطفال بطريقة تؤكد صحة بعض أوجه عقدة أوديب . وبعبارات أخرى إن التفضيل يمكن أن ينشأ فى البداية من الوالد نحو الطفل وليس من الطفل نحو الوالد[١] .

حتى الآن تتبعنا نمو الغريزة الجنسية منذ ظهورها إلى اللحظة التى تتعلق فيها « بموضوعات » يقدمها لها العالم الخارجى . وتنشأ بين سن الخامسة وسن الثانية عشرة فترة كمون تتسم بعدم ظهور الاهتمامات الجنسية وينمو « أنا » منسجم مع المحيط ، وهى فترة تقابل تطور الأنا الذى يختلف عن الأنا الأدنى ويؤثر باعتباره قوة للكبت والمراقبة . توائم بين ميول الأنا الأدنى وضرورات الواقع الخارجى .

وخلال الفترة الثانية الهامة من وجهة النظر الجنسية بين ١٢ سنة و١٨ سنة تنشط ميول الطفولة مرة أخرى وتثب الحياة الجنسية من جديد متبعة الطرق التى

---

(١) بعد أن حررت هذه الفقرة قرأت سلسلة من المحاضرات ألقاها فرويد فى جامعة كلارك بالولايات المتحدة ، فى سنة ١٩٠٩ ، ولاحظت أنه أثار هذه النقطة . وهكذا فقد كتب يقول : « يأخذ الطفل أحد والديه موضوعاً لرغباته العاطفية . وهو عندما يتصرف على هذا النحو يتبع طريقاً أشارا عليه به ، فعاطفتهما فيها علامة نشاط جنسى واضح حتى ولو كان ممنوعاً من حيث أهدافه . وكقاعدة عامة يفضل الأب ابنته وتفضل الأم ابنها . ورد فعل الطفل عند ما يكون ولداً هو تمنى أخذ مكان الأب وعند ما يكون بنتاً هو تمنى الحلول محل الأم » S. Freud, Two Short Accounts of Pycho — Analysis, Penglin, 1962 وفى رأيى أن هذا يجعل عقدة أوديب محتملة ومقبولة بالنسبة لثقافتنا الغربية حيث إن هذا التفضيل من الأب لابنته ومن الأم لابنها كثير الحدوث .

نهجتها خلال تطورها الأول . لذا فمن الصعوبة بمكان أن تحل مشاكل هذه السن دون التعرف على الظروف التى أثرت فى السن السابقة .

ويمكن أن يقف النمو الطبيعى للغريزة الجنسية لأسباب متعددة . ويمكن من ناحية أخرى أن تنمو بعض الغرائز المكونة للغريزة الجنسية أسرع من غيرها آخذة بذلك أهمية أكبر ومانعة نمو عملية التكامل الطبيعية ؛ إذ أن الحرمان يمكن أن يولد قمعاً وربما تؤدى تجربة فاشلة فى الحب إلى العودة إلى التعلق بالأم أو تفسح المكان لمزاولة الحب الذاتى auto — érotique .

وقد كيف فرويد هذا التوقف فى النمو الجنسى عند نقطة معينة بأنه « تثبيت » fixation ويعتبر فرويد تثبيت الطفل حيال أحد أبويه ذا أهمية فى تحديد اختيار الطفل لمن يحب فى المستقبل . وهكذا عندما يكون التركيز على أحد الأبوين قوياً يميل البالغ إلى اختيار رفيق يشبه هذا الوالد الذى يتوحد به . وعندما يكون التركيز على أحد الوالدين أقوى يكون رد الفعل مقلوباً لأن توحد الشخص المحبوب بأحد الأبوين يمكن أن يكون من الأهمية بحيث يثير الخوف والتقزز اللذين يصاحبان العلاقة بالمحارم . وفى هذه الحالة يمكن أن يميل الشخص إلى اختيار رفيق مختلف تماماً عن الوالد الذى ركز عليه اهتمامه الجنسى . وهذا الخوف من المحارم يمكن أن يؤدى إلى البرود الجنسى إذا كان اختيار الشخص لرفيق مرتبطاً لا شعورياً بالوالد من الجنس الآخر . ويمكن أيضاً أن تؤدى إلى منع الشخص من إيجاد علاقات جنسية مع شخص من الجنس المضاد إذ يُوحَّد الأشخاص من الجنس الآخر مع الوالد من الجنس المضاد — ويبحث عندئذ عن ارتباطات مع أشخاص من نفس جنسه . وهذا الاستعداد يمكن أن يصل إلى إيجاد علاقات جنسية مع أشخاص من نفس الجنس « جنسية مثلية » أو تتسامى فى صورة صداقات وطيدة بأشخاص من نفس الجنس .

والمثالان اللذان سنوردهما فيما يلى اخترا من كتاب بريل « التحليل النفسى ، نظريته وتطبيقه العملى »[1] وهما يوضحان آثار التوحد بالوالد من نفس الجنس .

كانت سيدة مثقفة فى الرابعة والعشرين من عمرها تشكو من برود جنسى

(١) Brill : P ycho — Analysis, its Theory and Practical Application

نفسى ، ولكن مشاعرها كانت تتحرك عندما يظهر رجل يعرج . وكان الأصل فى هذه الحالة أنها توحدت مع أمها التى كانت لها مغامرة خارج الحياة الزوجية عندما كانت سن هذه السيدة فى حوالى الثالثة أو الرابعة من عمرها . وكان الشريك فى هذه المغامرة رجلاً مكسور الساق . وكان على الأم أن تقوم بعدة سفريات ، وحتى تبعد الألسنة عن أن تلوكها كانت تصطحب ابنتها الصغيرة معها . ومع أن الطفلة ، لم تحتفظ فى ذاكرتها بأى ذكرى شعورية عن هذه الحقبة فقد ربطت بطريقة لا شعورية بين الجنس والعرج .

وفى حالة أخرى كانت سيدة شابة متزوجة غير قادرة على منع نفسها من الاتصال بالرجال وبرغم أنها كانت تعيش مع زوجها فقد كان لها مغامرات عديدة خارج الزواج . كانت ابنة وحيدة لرجل أعمال كثير الترحال بسبب أعماله ولذا لم تتمكن من معرفته معرفة كافية . وبقدر ما سمحت به قريحتها تذكرت أنها شهدت عدة مغامرات غرامية لأمها . ولذا فقد تزوجت هى نفسها برجل يشبه أباها وله نفس المشاغل . أى أنها توحدت تماماً بأمها .

وتسمى هذه الصور من التعلق بواسطة ترحد من هذا النوع كفلى Anaclitique لأنها دليل على الخضوع فى مواجهة أب حام أو أم مرضعة .

وتوجد مجموعة أخرى من التعلق يقال عنها إنها نرجسية Marcissique تستمد أصلها من التوحدات الآتية :

(١) التوحد بذات حالية .

(٢) التوحد بذات ماضية .

(٣) التوحد بجزء من ذات النفس .

(٤) التوحد بما نرغب فى أن نكون عليه .

فى الحالة الأولى تبحث عن التعلق بين أشخاص يشبهونك فى بعض الملامح الجسمانية أو النفسية . وهكذا فإن رجلاً طويلاً قد لا يعجب إلا بالنساء الطويلات

وفى الحالة الثانية تثبت الغريزة الجنسية عند مستوى مبكر ،عند اللحظة التى تكون فكرتنا فيها عن أنفسنا فكرة طيبة أو عند ما كانت الحياة تبدو سهلة . ومن هنا يقع الاختيار على أشخاص يذكرون بهذه اللحظات . وبذا يمكن تفسير

الزيجات بين أشخاص يفصلهم فارق كبير فى السن إذ يمكن إرجاع هذا الارتباط إلى وجود مثل هذا الاستعداد لدى أى من الطرفين .

وتوضح الحالة الثالثة حب الملكية لدى بعض الآباء حيال أطفالهم الذين يعدونهم جزءاً من ذاتهم . فيحاط الأطفال بعناية شديدة ويحرم الطرف الآخر من كل عاطفة .

أما فى الحالة الأخيرة فتتكون عقدة نقص تتكون من أنا أعلى قاس حيث يتجه الفرد إلى اختيار رفيق يمتلك كل الصفات التى يبدو له أنها تنقصه ويسبغ على موضوع الحب مثالية ويحيطه بحب يقترب من العبادة .

إن هذه اللمحة عن النظرية الفرويدية توضح مدى تعقد ميكانيكية التطور الجنسى . وربما كان رد الفعل الأول فى مواجهة أفكار فرويد مشوباً بالاستغراب والشك . ولكن يجب أن نتحرز من رفض هذه الأفكار من النظرة الأولى . والأبحاث الحالية فى مجال الجنس تجعلنا ندرك بمزيد من الوضوح تعقد الحياة الجنسية للإنسان وتنوع مظاهرها . ولن نلحق وصفاً غير أخلاقى أو غير مهذب بكل انحراف عن ما يعده المجتمع طبيعيًّا فى مجال الجنس .فقد بدأنا نتقبل أن هذه الانحرافات سواء تعلق الأمر بالميول الجنسية المثلية Homosexualité أو بالميول الاستعراضية Exhibitionisme لها أصل وسبب يتعين أن نتفهمها . من الجائز أن يكون فرويد قد أضفى على دور الجنس أهمية أكثر مما ينبغى وخاصة فيما يتعلق بطبيعة نموه ، فتفاصيل هذا النمو لم يتم بعد التوصل إلى معرفتها معرفة أكيدة ، ويعارضها كثير من علماء النفس المختصين الذين يقومون بأبحاث عن الطفل . ولكن من ناحية أخرى يستحيل دراسة نفسيات الأطفال دراسة ذات قيمة دون أن يؤخذ فى الاعتبار أن مثل هذا النمو يحدث فعلاً فى الواقع .

وهناك وجه آخر للنظرية الفرويدية فى الجنس أثار موجة من العداء الشديد وهو فكرة أن الحياة الثقافية للإنسان فى مختلف مظاهرها تستمد قوتها من الغريزة الجنسية . ففى رأى فرويد يمكن أن تجد الحياة الجنسية شكلاً للإشباع أو التعبير فى مجموعة من الأنشطة تبدو صلتها بالغريزة الجنسية غير واضحة . وتعتمد آراء فرويد على واقعتين مؤكدتين . الأولى أن الحاجات الجنسية يمكن إشباعها

خلافاً للغرائز الأخرى عن طريق التخيل . فى حين أننا لا نستطيع إطفاء جوعنا أو عطشنا عن طريق تصور الطعام والشراب فإننا يمكن فى حدود معينة الحصول على إشباع جنسى عن طريق الأحلام . لا يمكننا عن طريق البديل أو بمساعدة التخيل إطفاء جوعنا أو عطشنا ، أما حاجاتنا الجنسية غير المشعبة فيمكن فيها للبديل أو الحلم أن يحل محل الإشباع . وهذه حقيقة تعطى للنظرية الفرويدية أساساً قبلياً a priori .

أما النقطة الثانية فهى أن الحياة الجنسية كانت ولاتزال محل كبت أشد بكثير من أى كبت للغرائز الأخرى . فى مجتمعنا يكون الشبان الصغار قادرين جسمانياً على ممارسة حياة جنسية منذ سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ؛ ولكن يتعين عليهم تأجيل إشباع الحاجة الجنسية إشباعاً كاملاً خمس أو ست سنوات . فضلاً عن أن التعليم يرسب فكرة أن الجنس موضوع محرم لا يصح مناقشته إلا بحذر شديد يمهد لهذا التأخير . ومازالت فكرة الخطيئة وقلة الحياء مرتبطتين بالجنس إلى يومنا هذا ويكفى أن تذكر الكلمات المحرمة المتعلقة بها ، أما بقية الأنشطة الإنسانية فلاتحدث نفس الأثر اللهم ، إلا الأنشطة المتعلقة بالإخراج . ومن المحتمل أن يكون تحريم هذه الأخيرة مستمداً من صلة هذه الوظائف الوثيقة فسيولوجياً بالوظائف الجنسية فقلائل من بيننا أولئك الذين يستعملون الكلمة التى تصف هذه الوظائف دون فكرة خفية . وبالمناسبة يبدو مفيداً وهاماً أن يبحث كل منا فى ذاته عن تأكيد لهذه الميكانيكية الرادعة التى تبعث على مقاومة التفوه بكلمات معينة ، هذه المقاومة لا تبدو ذات معنى إلا فى ظل النظرية الفرويدية .

إذا ما أخذنا فى الاعتبار هاتين الحقيقتين معاً : أن الرغبات الجنسية يمكن إشباعها بواسطة التخيل أو بواسطة إحلال نشاط آخر محلها ، وأن الحاجات الجنسية محل كبت أشد من أى كبت تتعرض له الغرائز الأخرى ، نستطيع أن نفهم قوة فكرة فرويد : أن الحياة الثقافية تستمد قوتها من طاقة جنسية مكبوتة .[1] وإننى لا أرى أن هذا العنصر هو أساس الأنشطة الثقافية ولا أعتقد أن فرويد كان يراها كذلك . ولكن فكرة فرويد أن من خلال هذه الأنشطة يتم إشباع الميول الجنسية المكبوتة يوضح بصورة مؤكدة بعض أوجه الأدب والفن . وهذه نقطة

(١) سنناقش فيما بعد سبب أن الجنس خاضع لهذا النوع من الكبت .

سنناقشها فيما بعد أما الآن فأكتفى بالإشارة إلى أن القول بأن ــ الثقافة مثل حب الفن والموسيقى والأدب ــ ذات جذور جنسية لا يقلل فى شىء من أهمية الثقافة كما أنه يبدو لى أن معارضة هذه الفكرة سببها الاقتناع بأنها تمس الكرامة الإنسانية .

إن التحقق من النظرية الفرويدية يعنى فقط أن الحياة الجنسية للإنسان أكثر تعقيداً مما يظن عادة . وإننا نعرف الآن ، من أبحاث بيتسن وآخرين ، كيف تختلف الحياة الجنسية للإنسان عن الحياة الجنسية للحيوانات اختلافاً كبيراً سببه الدور الهام الذى تلعبه الفصوص المخية . فعلى حين أن الإثارة الجنسية لدى أغلب الحيوانات تعتمد فى جزء كبير منها على الإثارة الموضعية النابعة من الإفرازات الهرمونية للغدد الجنسية ، فإن هذه الإثارة لدى الإنسان قد لا تتم ومع ذلك تظهر إمكانيات الرغبة الجنسية . ففكرة أن طبيعة الحياة الجنسية للإنسان شديدة التعقيد وكون هذه الحياة يمكن لها أن تفصح عن نفسها بوسائل مختلفة ليست مرتبطة ارتباطاً مباشراً بفسيولوجية النشاط الجنسى يجب ألا تثير دهشتنا أو تحط من قدرنا .

وأود أن أختم هذا الفصل بتحليل نظرى للتميز بين الغرائز وهو تمييز ذو أهمية كبيرة فى عالمنا .

ميز فرويد فى البداية بين نوعين من الغرائز : الأول متعلق بالمحافظة على النوع يعنى الغريزة الجنسية كما شرحناها والثانى متعلق بالمحافظة على الفرد أى غريزة الأنا . وكانت هذه الغرائز تبدو كما لو كانت فى خدمة أهداف مستقلة عن بعضها ولا ترتبط بأصل مشترك وفى حالة الصراع كانت غريزة الأنا تنشط كما لو كانت عامل كبت والغريزة الجنسية كما لو كانت مكبوتة .

وقد حلت محل هذه التفرقة تفرقة أخرى بين غريزة الحياة (Eros) وغريزة التدمير أو الموت . وقد اضطر فرويد إلى افتراض هذه التفرقة بين المجموعتين على إثر دراسته للظواهر المتعلقة بالسامية والمازوخية .

فى السادية يستمد الإشباع الجنسى من الآلام التى يعانيها الموضوع الجنسى على حين أنه فى المازوخية تكون ذات المريض هى التى تتألم للوصول إلى الإشباع الجنسى . هذان الميلان لا يمكن فهمهما إلا بافتراض انصهار غريزتين مختلفتين :

غريزة جنسية وغريزة تدمير ، ويرى فرويد أن كل الميول الغريزية تجد أصلها فى صهر هاتين الغريزتين بدرجات متفاوتة .

فالمازوخية ، إذا جردناها من عنصرها الجنسى ، تفترض وجود ميل إلى تحطيم الذات . إذ لما كانت الغرائز فى مجموعها تتحرك فى بدء الحياة داخل الشخصية حيث لا ينمو الاهتمام بالموضوعات الخارجية إلا فيما بعد فإن المازوخية ، أى الميل إلى تدمير الذات ، يجب أن تكون أقدم وأعرق من السادية . أما فى حالة السادية فإن غريزة التدمير لا توجه نحو الذات وإنما إلى الخارج وتتحول إلى نوع من العدوان . وإذا كان هذا العدوان لا يجد مخرجاً إلى العالم الخارجى أى إذا لم يكن بإمكانه محاصرة موضوعات معينة فإنه يستدير مرة أخرى إلى الداخل مهدداً الشخص بتدمير ذاتى ولتفادى هذا لابد من إيجاد موضوعات فى العالم الخارجى يتجه نحوها هذا الميل العدوانى . ويقول فرويد : « كل شئ يحدث كما لو كنا رغبة فى حماية أنفسنا من التحطيم الذاتى ، نجد لزاماً علينا تحطيم أشخاص غيرنا أو أشياء »[١]

وقد أعرب فرويد فى خطاباته لاينشتاين[٢] عن فكرة أن الحرب « ما هى إلا تلهية لغريزة التدمير بتوجيهها نحو العالم الخارجى » . ويعطى هذا الميل إلى الحرب « تبريراً بيولوجياً » « ونحن لا نستطيع إنكار أن الميل إلى الحرب أقرب لطبيعتنا من مقاومة الحرب ، التى تظل فى الواقع نظرية » . وقد تناول جلوفر وهو محلل نفسانى بارز دراسة العلاقات بين الحرب والجنوح نحو السلام ويذهب إلى أن « جزءاً كبيراً من الطاقة التى تستخدم فى تنظيم السلم تنبع من نفس المصدر الذى تنبع منه الحرب » . ولذا فإن إجراءات السلم تكون مخففة واحتمالية لأنها إذا ذهبت إلى نهايتها فإنها تبدو فى الحقيقة عدوانية .

وقد لقى هذا الرأى مقاومة حتى من بين محبذى النظرية الفرويدية ، فى مجموعها ومع ذلك يبدو أن العدوانية عنصر لصيق بنفسية الإنسان وإذا ما افتقد مخرجاً خارجياً ، يؤدى إلى التحطيم الذاتى . وسواء أكان هذا الرأى صحيحاً أم لا فإنه

---

(١) Freud : Nouvelles Conférences, p. 112

(٢) Pourquoi la guerre ?

يتفق بشكل مؤكد مع تاريخ التطور الإنسانى الذى يزخر بقصص الاضطهاد السياسى والدينى وبأنواع التعذيب والوحشية . وهو يتفق أيضاً مع التهديد الذى يحوم حولنا بتدمير نووى ، ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن نظرية فرويد تقود حتماً إلى نظرة ملؤها التشاؤم فى قدرة الإنسان على التحكم فى ميوله العدوانية . فأنا الإنسان المتعقل . وهو نتاج التفاعل المتبادل بين مجهودات الأنا الأدنى لتحقيق الإشباع المطلق وضروارات العالم الخارجى يلوح من ورائها الأمل فى أن يتمكن الإنسان من السيطرة على قوى التدمير الكامنة فى نفسه وتوجيهها نحو أهداف أصلح من وجهة نظر المجتمع . وفرويد نفسه عارض أولئك المحللين النفسانيين ... ذوى النظرة اليائسة فى إمكانيات تحكم العقل وأعرب عن فكرة أنه أيًّا كان ضعف الأنا بالنسبة للقوى الشيطانية التى تسكن فى أعماقنا فإن إنماء المعارف فى السكولوجية الإنسانية وتفهمهما يعد أحسن وسيلة لتحرير الأنا من العبودية حيال الأنا الأدنى . إذ سيحل الأنا محل الأنا الأدنى . ولذا يمكننا أن نعتبر أن اللوحة القاتمة التى رسمها فرويد لقوى التدمير التى تسكن فينا والتى تدفع العالم إلى تدمير نفسه ، تعد تحذيراً مما يمكن أن يقع إذا لم نجعل للعقل المنزلة الأعلى .

٣ ـ الأحلام والتحليل

رفع فرويد الحلم إلى مستوى البحث العلمى . كان الحلم فيما سبق امتيازاً للعرافات والمنجمين والمشعوذين ؛ ولم تفكر العقول العلمية فى إعطاء ولو بعض الأهمية لما كان يبدو أرض صيد محجوزة لأولئك الذين كانوا يتصيدون ضحاياهم من بين الموسوسين والجهلة . وإذا ما توصلوا إلى إعطاء الحلم بعض الأهمية فإنهم لم يكونوا يتعدون القول بأنه نتاج عقل مجهد دون الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك .

وقد وصف فرويد هذا الموقف فى فقرة كان يقص فيها كيف أصبح الحلم جزءاً من تكنيك التحليل النفسى : « اكتشف ذات يوم أن الأعراض المرضية لبعض العصبيين لها معنى . وكان هذا نقطة البداية للعلاج بالتحليل النفسى . وخلال العلاج بالتحليل النفسى لوحظ أن المرضى يروون أحلاماً بدلاً من أعراض المرض . وافترض تبعاً لذلك أن هذه الأحلام لها بدورها معنى .. وهكذا أصبح الحلم موضوعاً لأبحاث التحليل النفسى . والحلم ظاهرة عادية لا تعلق عليها إلا أهمية ضئيلة ومجردة فى ظاهرها من كل قيمة عملية[١] ... » .

والهدف الرئيسى للحلم فى نظرية التحليل النفسى ، هو إبعاد كل ما يمكن أن يربك النوم . والمثال البسيط على ذلك هو الرجل الجائع الذى تزعجه تقلصات الجوع وتكون بذلك مثيرات داخلية . فيحلم هذا الشخص بأنه يحضر وليمة محتفظاً بنومه بفضل الإشباع الخيالى لجوعه . ومن الأمثلة المألوفة عن المثيرات الداخلية فى الأحلام مثال كيس الماء الساخن الذى ينساب ويولد حلماً موضوعه ماء البحر ، ومثال جرس المنبه الذى يتحول فى الحلم إلى رنين جرس رقيق . وعلى هذا النحو يتم الحفاظ على النوم بإدماج ما يزعجه فى الحلم .

ويلعب الحلم فى رأى فرويد دوراً آخر هو أنه يجسد تحقيق أمنية مستحيلة فى الواقع . ويقوم جزء هام من تكنيك التحليل على فك رموز الحلم كما رواه الحالم لاكتشاف الأمنية التى يحتويها الحلم .

---

(١) Freud : Introduction à la Psychanalyse, p. 69.

وخلال عملية فك الرموز هذه تتدخل تفرقة بين المضمون الظاهر والمضمون الكامن فى الحلم . فالمضمون الكامن هو الباعث الحقيقى على الحلم أى مجموع الميكانيكيات النفسية التى تثيره . وحتى يمكن لهذه الميكانيكيات اللا شعورية أن تفصح عن نفسها فى الشعور فإنها تستخدم أفكاراً أخرى وصوراً أخرى ورموزاً أخرى تسمح لها بالهروب من قوى الكبت التى تفقد جزءاً من فاعليتها فى أثناء النوم « فالحلم هو التحقيق المتنكر لأمنية مكبوتة ، وهو التوفيق بين متطلبات ميل ممنوع والمقاومة التى تثيرها الرقابة النابعة من الأنا »(فرويد)

أما التصوير الفعلى للحلم فهو يكون ما يسمى بالمضمون الظاهر ؛ وهو يغطى المضمون الكامن الذى يشير إلى المعنى الحقيقى . ويكون عمل المحلل النفسانى هو اكتشاف الميكانيكيات اللاشعورية التى تعد أصل الحلم وذلك فيما وراء الحلم كما يرويه الحالم .

وقد شبه فرويد الرقابة على الحلم التى تحول المضمون الكامن إلى مضمون ظاهر بالرقابة على الصحف فى أثناء الحرب : « افتحوا أى جريدة سياسية وستجدون النص متقطعاً فى مواضع متفرقة تاركاً مناطق خالية على الورق .. وفى أحيان أخرى .. يتوقع الكاتب أن بعض الفقرات ستصطدم بفيتو الرقابة فيخفف من لهجتها مقدماً ، ويدخل عليها تعديلات طفيفة أو يكتفى بمسها أو الإشارة كناية إلى ما كان على وشك أن يكتبه . وتظهر الجريدة بعد ذلك وبها فراغات بيضاء ولكن بعض التوريات والأفكار الغامضة تكشف لك بسهولة المجهودات التى بذلها الكاتب ليهرب من الرقابة الرسمية بإخضاع نفسه لرقابته الذاتية مقدماً »[١]

وتُعرَف الميكانيكية النفسية التى عن طريقها تَعْبُر المادة المكبوتة إلى الشعور باسم « صياغة الحلم » L'élaboration du rêve ..بهذه الوسيلة تتحول الإثارات التى تقلق النوم إلى حلم وتولد صوراً تفصح بها المادة المكبوتة عن نفسها .

ولندرس الآن بعضاً من الوسائل التى تنشط فى أثناء صياغة الحلم لتحويل المضمون الكامن إلى مضمون ظاهر .

---

(١) Freud : Introduction a la psychonoalyse, p 124

يقول فرويد إنه يعنى « بالتكثيف » أن مضمون الحلم الظاهر أصغر من مضمون الحلم الكامن إذ لا يقدم المضمون الظاهر إلا نوعاً من الترجمة المختصرة للمضمون الكامن (١) .

« والتكثيف » ميكانيكية يتداخل بواسطتها عدد من عناصر المضمون الكامن المتشابهة لتقديم صورة واحدة أو فكرة واحدة فى المضمون الظاهر . فى الحلم يمكن أن تولد شخصية واحدة من إذابة ملامح عدة أشخاص . وهكذا يمكننا أى نحلم بشخص يشبه السيد (س) يمشى كما يمشى (ص) ويلبس كما يلبس السيد (ء) . و تحلم بمكان يسمى Trouport رمزاً لتجربتين إحداهما فى Trouville والأخرى فى Tréport وتوجد علاقة فى المضمون الكامن بين الأشخاص والأماكن تسمح بصهرهم فى المضمون الظاهر .

هذه الميكانيكية شديدة التعقيد لأنه من ناحية قد يمثل عنصر واحد عدة ميول مكبوتة ومن ناحية أخرى قد يعبر عنصر واحد مكبوت عن نفسه بعدة عناصر ظاهرة . وفى رأى فرويد يوجد هنا تشابك entrelacement بين المضمون الظاهر والمضمون الكامن حتى إن معنى كل عنصر من عناصر الحلم الظاهر يجب أن تنتظر التفسير الكلى للحلم .

ولكن أهم ميكانيكية فى تشييد الحلم هى (النقل) Le déplacement وهو المسئول الأساسى عن الطبيعة غير المفهومة للحلم .

فالاهتمام العاطفى بعنصر هام فى المضمون يمكن أن « ينقل » إلى عنصر أقل أهمية حتى إن الحلم الظاهر يكون مركزاً على عناصر ثانوية أو قليلة الأهمية . وهكذا فإن ما يبدو الموضوع الأساسى للحلم قد لا يكون له فى الواقع سوى عامل لا معنى له ، ويكون المعنى الحقيقى مرتبطاً بعنصر مختف . فى حلم يصف منزلاً وطريقة تزيين الأبواب والنوافذ لايتعلق العنصر الهام فى الحلم إلا بإناء صغير موضوع على المدفئة . ويقول فرويد إن « النقل » Le déplacement هو الطريقة المستعملة أساساً فى أثناء تشويه الحلم والتى تتدخل تحت تأثير الرقابة .

والمسرحة Dramatisation وسيلة تتحول بواسطتها أفكار الحلم إلى صور مرئية

---

(١) Ibid, p. 156

والأفكار المجردة إلى أشياء ثابتة . وترتبط ميكانيكية المسرحة ارتباطاً وثيقاً بمكانيكية النقل لأن اختيار الفكرة التى سيتم التركيز عليها بالاشتراك مع العنصر الهام تعتمد على إمكان تصوير هذا العنصر تصويراً مرئيًّا . « فنشاط الحلم لا يتردد فى إعادة تأسيس فكرة صلبة بسرعة وإعطائها شكلاً آخر حتى ولو كان هذا الشكل أكثر غرابة ، مادام هذا الشكل الجديد ييسر تحويل هذه الأفكار إلى صور مرئية ، واضعاً بذلك نهاية للقلق الذى تثيره فكرة متسلطة » (فرويد).

وبهذا يأخذ الحلم شكل حركة أو نشاط مسرحى ، أما معطيات الزمن والمكان فلا تتدخل فى لعبة الأفكار الظاهرة .

وأخيراً فإن ميكانيكية الصياغة الثانوية L'élaboration secondaire « تتدخل فى لحظة الاستيقاظ ولا تتوقف عند هذا الحد . وتتم صياغة الحلم بواسطة الرقيب المتيقظ الذى يجعله أكثر اتساقاً وأقرب للمنطق . ويتم إخفاء بعض العناصر بصورة أفضل حتى لا تزعج الشعور . وترتبط العناصر المختلفة للحلم الظاهر ببعضها حتى يكون الحلم كلا ، ولكن يجب الاحتراس ، بصفة عامة من الرغبة فى تفسير جزء من الحلم الظاهر بواسطة جزء آخر كما لوكان الحلم فكرة واحدة متسقة أو كما لوكان يشكل تمثيلاً عمليًّا » . (فرويد)

ولذا فإن نتيجة الصياغة الثانوية هى إعطاء الحلم شكلاً جديداً كلية وزيادة صعوبة تفسيره .

وتفصح الميكانيكيات النفسية المكبوتة عن نفسها فى الحلم بواسطة الرموز فالشئ يمثل شيئاً آخر بسبب نقطة تشابه بينهما حتى إن الجمع بينهما يكون من الدقة بحيث لا يدركه الشعور . هذا التمثيل بالرموز يكون قبل كل شئ تحويلاً للاهتمام العاطفى من موضوع إلى موضوع آخر . وهذه الميكانيكية عامة متعلقة بالإنسانية حتى إننا نجدها فى المراسيم الوثنية والدينية . فالعيش والدم اللذان يرمزان لجسد ودم المسيح والمرأة ذات العينين المعصوبتين التى تحمل ميزاناً لترمز للعدالة تعتبر أشكالاً مألوفة لكل منا .

ويمكننا اعتبار مثل هذه الرمزية مقابلاً لحاجة العقول البدائية للتعبير عن أفكارها فى صورة عيانية ولكننا إذا نظرنا إليها باعتبارها تعبيراً عن ميكانيكيات

لا شعورية فإن الرموز ستبدو كما لو كانت طريقة للتنكر إذ أن الموضوعات المتباعدة التى تجمع يتم اختيارها لتمثل الحاجات المكبوتة .

وهناك رموز معينة تظهر كثيراً فى الأحلام لدرجة أن النظرية الفرويدية اعتبرتها عالمية . وهكذا فإن المنزل يرمز غالباً لجسد الإنسان ، فإذا كانت الجدران ملساء يكون الأمر متعلقاً برجل ، أما إذا كانت مزودة بأسوار ومطلات فإن الأمر يكون متعلقاً بامرأة . ويظهر الوالدان فى صورة ملك وملكة على حين يظهر الإخوة والأخوات فى صورة حيوانات صغيرة أو ديدان . وترمز المياه فى الحلم للميلاد أما العلاقات بين الأم وأطفالها فتمثل بواسطة النزول إلى الماء أو الخروج منه ، بإنقاذ الغير أو الإنقاذ بواسطة الغير . ويرمز السفر للموت .وتمثل الأعضاء الجنسية بواسطة أشياء تشبهها من بعض الأوجه ؛ فعضو الذكر يمثل بواسطة شئ له قدرة على النفاذ (سكين أو خنجر إلخ) وأيضاً بواسطة عصا أو مظلة أو أشجار أو صارٍ . وتمثل الأعضاء المؤنثة بواسطة أشياء مقعرة بئر أو حفرة أوقدر أو علبة .. إلخ .

ويبدو أن التكنيك المستعمل فى التحليل النفسى بسيط إلى حد كبير ولكنه يتطلب من المحلل النفسانى براعة وصبراً لا يمكن التوصل إليهما إلا بعد سنوات من التمرين العملى . وهذا التكنيك يعرف باسم التداعى الطليق Assocations libres ويتم عملياً على النحو الآتى : يروى المريض حلماً ، أو تجربة أو يعبر عن فكرة أو نظرية عزيزة على نفسه ويطلب منه المحلل التجول بأفكاره حول هذا الموضوع ويجب على المريض ألا يبذل جهداً فى توجيه أفكاره كما يجب أن يعبر عن الأفكار المتواصلة التى تعن له . ولما كان كل تداع يجر آخر فإن المريض ينتهى إلى تذكر التجارب المنسية . وفى الهدوء الذى يخيم على مكتب المحلل النفسانى يرتخى المريض ويتكلم عن نفسه بطريقته ، وفى الوقت نفسه يعبر عن أحلامه . ويحرص المحلل على تجنب ما يوحى إلى المريض بأى شىء بواسطة الحركة أو القول .

ويدون المحلل وقفات المريض فى أثناء تحدثه والتى يبدو أنها تعنى وجود أمر مكبوت . ويقابل المحلل عادة مقاومة كبيرة ، كما لو كان المريض يخشى الكشف عن ميوله اللا شعورية ويقتضى الأمر أشهراً عديدة لإتمام التحليل ، أشهراً من الصبر والفهم .

وتنمو علاقة عاطفية بين المحلل والمريض تسمى التحويل Transfert أى تتحول الانفعالات والميول ذات الصلة بعلاقات سابقة لم تتم على النحو الذى كان يأمله المريض إلى المحلل ، وبهذا يتحرر المريض من موافقة العاطفية التى كانت أساس الصعوبات التى عانى منها ، ويصل المحلل إلى أن يضع أمام عينى المريض تباعاً الأشخاص الذين كانت له بهم علاقات عاطفية . فيستطيع أن يقدم مثلاً والد المريض عندما كان المريض طفلاً تتنازعه نحو الأب الأحاسيس المتناقضة من حب وكراهية . هذا الوضع الثنائى[١] الذى يكون فيه الموضوع أو الشخص تحت تأثير الميول المتناقضة محبوباً ومكروهاً فى آن واحد يجعل مهمة المحلل دقيقة ويقول فرويد : « لا يمكن إنكار أن المحلل النفسانى فى أثناء جهوده لتخطى ظاهرة التحويل بنجاح يلقى صعوبات كبيرة ، ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الصعوبات هى التى تسدى لنا خدمة إحياء الانفعالات العاطفية التى نسيها المريض »

الهدف النهائى للمحلل هو جعل علاقة التحويل واعية حتى يعرف المريض دور المحلل وطبيعة الانفعالات المتصارعة التى يشعر بها نحوه .لأن هذا يسمح له بالتحرر من الخضوع للمحلل . وتفهم الأسباب التى كانت أصل الصعوبات التى واجهها .

كان فرويد شديد الحرص فى أحكامه المتعلقة باستعمال تكنيك التحليل النفسى . وكان يعترف بصراحة أن حالات الشفاء فى أثناء العلاج بالتحليل النفسى ليست مرتفعة إلى حد يمكن التفاخر به وفعلاً فقد كتب يقول « لا أعتقد أن نجاحنا يمكن مقارنته بنجاح Lourdes[٢] لأن عدد الأشخاص الذين يؤمنون بمعجزات السيدة العذراء أكثر من أولئك الذين يؤمنون بوجود اللا شعور » وبصرف النظر عن الدعابة التى تحويها هذه الجملة فإنه يبدو أنها تعترف ضمناً بدور الإيحاء فى الشفاء إلى حد يصعب معه القول إلى أى مدى يرجع فيه نجاح التكنيك الفرويدى إلى القيمة الذاتية لطريقته أو يرجع إلى الثقة التى يضعها المريض فى المحلل . ولكن أهمية النظرية الفرويدية لا ترجع إلى النجاح الذى

---

(١) Freud : Nouvelles conférences, p. 165

(٢) مكان مشهور للحج مخصص للعذراء . Larousse

تحرزو فى العلاج بقدر ما ترجع إلى قدرتها على جعلنا نفهم ، بطريقة أفضل ، الطبيعة الإنسانية . فأهمية العلم لا تكمن فقط فى الإمكانيات التى يقدمها لنا للتدخل أو التنبؤ ، وإنما يهمنا العلم كذلك لأنه يجعلنا نفهم الميكانيكيات التى تمكننا من التدخل . فنظرية فرويد عن الحلم تعطى للأحلام معنى وتشرحها باعتبارها شكلا للنشاط النفسى ينتج عندما يكون الشعور فى حالة راحة . وفى ضوء هذه النظرية نلاحظ أن الطريقة التى تعبر بها الخيالات عقلنا فى حالة اليقظة مرتبطة بالأحلام التى تراودنا فى الليل . فنحن نعلم أننا نحاول فى أحلام اليقظة تحقيق الآمال والرغبات الواعية ؛ فنرى أنفسنا وقد حققنا النجاح ونقوم بتحويل الأحداث لتعكس لنا صورة طيبة عن أنفسنا . وحسب النظرية الفرويدية فإن حدوث مثل هذه الميكانيكية أثناء النوم يصبح شيئاً ذا معنى . وقد كان الدكتور براون على حق عندما قال إن فهم جزء كبير من هذه النظرية يرجع إلى أنها تعبر عن أشياء طالما عرفناها ولكن بصورة مشوشة[١] ويورد الدكتور براون حجة الأستاذ نوتكات فى كتابه « Psychology of personality » والتى مؤداها أنه « حتى أولئك الذين يعدون التعبير بالرموز فى الأحلام مفتعلاً ومضحكاً يعرفون تماماً معناه . فإذا ما حلم شخص بأنه ينزل إلى مطبخه ويفتح الفرن فيجد به قطعة من الحلوى فإنه عندما يستيقظ يرى الحلم مجرداً من كل معنى ؛ ومع ذلك فإنه عندما يجلس فى مقهى الحى مع جندى يقول له : « إن لدى زوجتى قطعة حلوى فى الفرن » يفهم بسرعة ما تعنيه هذه الجملة »[٢] .

أكدت الأبحاث على النوم بطريقة غير مباشرة صحة نظرية فرويد عن التعبير بالرموز فى الأحلام ؛ وتمت دراسة الطريقة التى يحدث بها تعديل مضمون الأحلام بواسطة المنبهات الشفوية . وخلال إحدى التجارب أوقظ الشخص بعد أن أعيد على سمعه مراراً اسم صديقته " Jenny " والذى كان يردده جهاز تسجيل . وعندما استيقظ تذكر أنه كان يحلم بأنه كان يقوم بفتح خزانة حديدية بواسطة كماشة " Jemmy "[٣] . فالتعبير بالرموز فى هذا الحلم واضح . ولكن الشىء الذى

---

(١) Dr. J.A.C. Brown : Freud and the post — Freudians, Penguin 19262, P. 189

(٢) جملة شعبية إنجليزية تعنى أن المرأة حامل .

(٣) Pince Monseigneur

يلفت النظر هو كون الإثارة الشفوية ذات المضمون العاطفى القوى ، يمكن أن تولد حلماً ، وأن هذا الحلم مع كونه نابعاً من الإثارة الشفوية ، يصل إلى التعبير عن ميول عاطفية كامنة .

وبرغم أن فرويد نادى بضرورة إدخال الحلم فى مجالات البحث العلمى وبأن الحلم له معنى ولا يقتصر على كونه نتاج نشاط نفسى لم يتم التحكم فيه ، فإننا نستطيع أن نقول وبحق إنه بالغ فى تقدير الدور الذى يلعبه تحقيق الرغبات فى صياغة الحلم إن أقصى ما يمكن أن نقوله هو أن نشاط الحلم هو وسيلة للتعبير عن الرغبات المكبوتة ، ولكن هذا لا يعنى أن نشاط الحلم يستمد من تحقيق الرغبات فقط وأنه لا تتدخل عوامل أخرى فى صياغة الأحلام . وتعلمنا تجربتنا من خلال الحياة اليومية أن خوفنا وقلقنا يعبران كذلك عن نفسيهما فى الحلم ؛ وبرغم أن هذا الخوف والقلق يمكن أن يكون مصدرهما الرغبات المكبوتة ، بمعنى أن هذه الرغبات يحرمها المجتمع وبذا يصبح سبباً للقلق ، فإن الخوف والقلق يمكن أن يكونا مرتبطين بأسباب أكثر موضوعية .

وعلى سبيل المثال أسر لى صديق فقد عمله لمدة ثلاث سنوات خلال أزمة الثلاثينات بأن الخوف من البطالة ظل يراوده ولم يستطع التخلص منه تماماً فى أية لحظة . وبرغم أنه يستطيع التحكم فى هذا الخوف فى أثناء يقظته فإنه يعود للظهور أحياناً فى أثناء نومه .

والحقيقة أن جزءاً كبيراً من حياة اليقظة خاضع لما يفضل تلاميذ فرويد تسميته « القمع » "répression" فى مقابلة « الكبت » "refoulement" أى تنحية الأفكار المقلقة جانباً بطريقة شعورية . ولما كانت الرقابة الشعورية تضعف فى أثناء النوم ، فإن الأفكار المنحاة والميول المكبوتة يمكنها أن تظهر وتعبر عن نفسها .

إن الماركسية التى تعالج وقائع محددة موضوعيا وعلى وجه الخصوص وقائع اجتماعية لا تفسح للحلم إلا مكاناً صغيراً فى تركيبها النظرى . ومع ذلك ، كما سأحاول أن أوضح ، فإن الأحلام ذات أهمية خاصة بالنسبة لنظرية المعرفة . ذلك أنها

تقدم تعبيراً عن التفكير الاجتماعى . بمعنى أنها لا تعتبر جزءاً من وسائلنا المعتادة فى التعبير وبالتالى لا تستخدم الوسائل اللغوية التى تسمح لنا بالتواصل مع الآخرين . هذه الوسائل اللغوية ، نظراً لأنها على قدر كبير من التجريد ، تخضع لتحريفات خاصة بها . وأيًّا كان الأمر فإن الدراسات المتعلقة بالإنسان لا يمكنها أن تتجاهل حقيقة الحلم . فكوننا نستطيع أن نحقق فى الأحلام ما يأباه علينا الواقع الخارجى حقيقة ذات معنى اجتماعى لا تزال أهميتها فى انتظار استكشاف الإنسان لها .

٤ ــ السواء والمرض فى علم النفس

من بين الاعتراضات التى توجه إلى نظرية التحليل النفسى أنها مؤسسة على ملاحظات تتخذ من الحالات غير السوية أى المرضية نقطة البداية لها . وقد كان رد فرويد على ذلك أن الحالات غير السوية لا تختلف عن الحالات السوية إلا اختلافاً فى الدرجة وأن الاتجاهات الموجودة فى الحالات المرضية موجودة فى الحالات غير المرضية ولكن بشكل مخفف . ويؤدى تضخم الأعراض كما تظهر فى الحالات المرضية إلى تسهيل دراستها ويكفى أن نتأمل بعمق السلوك المعتاد لنعثر على نفس الاتجاهات والميول ولكن بصورة أقل ظهوراً فى تصرف كل منا .

ويكمن الخطر الحقيقى عند القيام بممارسة العلاج النفسى . فيجب على القائم بالعلاج النفسى أن يحترس من تطبيق المعطيات غير الطبيعية على أشخاص طبيعيين ــ من أن يرى كل شخص عصابياً أو مريضاً بالذهان ــ ذلك أنه تظهر على كل منا إلى حد ما ، ملامح سلوك غير طبيعى .

وخلال هذا الفصل أود أن أصف بعض أشكال التصرف التى تبحث فيها ميولنا اللاشعورية عن وسيلة تعبر بها عن نفسها والتى تكوّن ميكانيكيات الدفاع التى يستعملها الأنا . وللتمهيد لوصف السلوك العادى سأبدأ بدراسة السلوك غير العادى .

الشكلان غير العاديين للسلوك غير الطبيعى هما العصاب Névriose والذهان Psychose أى المرض العقلى .

فى العصاب ينشأ ، حسب النظرية الفرويدية ، وضع تكون فيه الميول والاتجاهات المتضادة قد بلغت حدا من التوتر لا يمكن احتماله . وإذا بالكبت تقل فاعليته فى التحكم فى هذه المتضادات . ويهدد القلق بالاستقرار . وفى سبيل تجنب هذا ينمى الأنا أعراضاً عصابية تقوى الكبت أو تسمح للميول اللا شعورية أن تفصح عن نفسها جزئياً . وتعد هذه الأعراض بالنسبة للأنا وسيلة للهروب من هذه الميول

التى يثير الصراع فيما بينها قلقاً كثيفاً . وهكذا فى أثناء الحرب يغدو كثير من الجنود فريسة لانفعالات وميول متضادة . إذ تكون لديهم رغبة فى الابتعاد وبقدر الإمكان عن مكان الخطر ولكنهم يحجمون عن ذلك لما يولده تحقيق هذه الرغبة من الشعور بالإثم . الهرب مخزٍ ، والبقاء ينطوى على خطر وربما يؤدى إلى الموت . نلاحظ هنا وجود ميلين متضادين . فيجب على الأنا أن يواجه من ناحية الضغط العاطفى الذى يولده وضع منطو على خطر ، ومن ناحية أخرى التركيبات الأخلاقية للأنا الأعلى التى يجعل ناموسها الهرب صعب التصور . ويتصادف أن يقدم جرح وسيلة للهرب من هذا الاختيار ، وإذا بالشخص المصاب يعمل على إنماء عمى أو شلل يجعله فى حالة عجز عن العمل الإيجابى .وبهذا يشبع غريزة الابتعاد عن الخطر دون أن ينجم عن ذلك شعور بالإثم . ويمكن أن تكون الأعراض العصابية مصحوبة بآلام شعورية لإرضاء الأنا الأعلى ويرتبط العمى أو الشلل بأسباب نفسية ذلك أنه فى حالة التنويم المغناطيسى يعود البصر أو يسترد العضو المشلول القدرة على الحركة ثم يختفى عندما تتوقف حالة التنويم المغناطيسى . وتتم الأعراض بميكانيكية لا شعورية تماماً ودون غش متعمد .

وتسمى هذه الوسائل للهروب من صراع عاطفى عن طريق الإصابة باضطراب جسمانى يبحث فيه الأنا المهدد عن ملجأ ، تسمى فى لغة التحليل النفسى بعصاب الاستبدال أو التحول . Névroses de conversion . ويحدث كل شىء كما لو كان الصراع النفسى يتحول إلى أعراض جسمانية .وفى الحالات الأخف درجة التى لا تصل إلى أن تكون عصاباً نستطيع أن نلاحظ كل يوم هذه الميكانيكية فى ظهور إصابات قليلة الخطر : سعال ، زكام ، صداع ، تجنبنا لقاءات لا نرغب فيها أو أعمالاً منفرة . فالصداع الذى يمنعنا من إلقاء خطبة يمكن أن يبدو تلقائياً ولكنه يساعدنا على التخلص من مهمة كنا لا نرغب فى القيام بها

ويعد العصاب القهرى[1] شكلاً آخر من أشكال الهروب . ويدخل فى هذه الطائفة الموسوسون الذين يشعرون بضرورة القيام بأعمال معينة مجردة من أى معنى فى

---

(١) يقابل ما يعرف فى اللغة الدارجة بالوسواس مثل أن يقوم المريض تحت إحساس قهرى بغسل يديه مرات عديدة فى أثناء النهار أو بغير ذلك من الطقوس القهرية قبل النوم مثلا .

ذاتها ولكنها ترمز إلى ميول مكبوتة . فالأعمال مثل الترتيب ، والعد ، ولمس الأشياء ، لها قيمة تحمى أولئك الذين يلجأون إليها من أن يقوموا بأعمال أخرى يمكن أن تولد إصابات غير مرغوب فيها . ويمكن أن تكون ردود فعل تسعى ، رمزياً ، إلى إعدام عمل سابق ذى معنى نفسى قوى . وقد تكون أعمال القهر مصحوبة بأفكار تبدو غالباً تافهة وخالية من أى معنى ولكنها تساعد على إخفاء أفكار أخرى هامة من الناحية النفسية . وتتسبب استحالة القيام بهذه الأعمال والجهود التى تبذل لطرد الوساوس فى حدوث اضطراب عقلى خطير .

ويضرب فرويد مثلاً طريفاً عن العصاب الحوازى فى كتابه « مقدمة فى التحليل النفسى » .

كانت فتاة ذكية فى التاسعة عشرة من عمرها تشعر دون سبب ظاهر بانهيار شديد. إذ كان عليها قبل أن تأوى إلى فراشها أن تقوم بمجموعة من الطقوس المعقدة؛ كانت لا تريد أن تسمع أى ضجة فى أثناء الليل وفى سبيل ذلك كانت توقف الساعة ذات البندول فى حجرتها وتترك ساعة يدها خارج الحجرة . ثم ترتب بعناية الزهريات وشوالى الورد على مكتبها حتى لا تسقط على الأرض وتزعج نومها . وكانت تصر على أن يترك باب حجرتها المؤدى إلى حجرة والديها مفتوحاً . وأخيراً ترتب فراشها بطريقة معقدة بحيث لا تمس الوسادة الطويلة خشب السرير وتوضع المخدة محازية تماماً لقطر الوسادة الطويلة . وتهز زغب المخدة حتى يسقط الريش كله فى القاع ثم يبسط ليعاد توزيعة مرة أخرى بصورة متساوية « وتكون جميع هذه الحركات مقترنة بالخوف من عدم القيام بها على النحو الواجب . ولذا كانت تحاول مراراً وتكراراً ؛ ويتسرب الشك أحياناً إلى الاحتياطيات التى كانت تتخذها وتكون النتيجة هى انقضاء ساعتين قبل أن تستطيع أن تنام وتترك والديها المذعورين ينامان » (فرويد)

وقد أظهر التحليل الذى قام به فرويد لهذه الطقوس أن الهدف منها مزدوج فهى من ناحية ترمز لرغبات جنسية مكبوتة ومن ناحية أخرى تعد وسيلة دفاع ضد هذه الرغبات .

نبه فرويد إلى أن الاحتياطيات التى تتخذها هذه الفتاة قبل أن تأوى إلى

فراشها لها مقابل فى الحياة العادية . فكثير من الأشخاص يلجأون إلى القيام بأعمال روتينية قبل أن يناموا . ولا تعد هذه الاحتياطات أعراضاً عصابية إلا إذا اتخذت شكلاً مبالغاً فيه وكانت مصحوبة بوسوسة شديدة . وكذلك الحال بالنسبة لأعمال الوسوسة الأقل أهمية مثل: تفادى وضع القدم على الشق بين بلاطتين ، ولمس حاجز السلم ، وعد الخطوات ، وغسل الأيدى وغيرها من الأعمال التى يمكن ملاحظتها كثيراً فى الحياة اليومية . وهى لا تشير إلى وجود عصاب إلا إذا أصبحت تشيع الاضطراب جدياً فى سير الحياة وتصبح مصدراً للقلق إذا لم يتم إنجازها .

إذن فالأعراض العصابية لها معنى . إنها ميكانيكيات يستطيع الأنا بواسطتها الدفاع عن نفسه أمام إلحاحات الأنا الأدنى والقلق الذى يصاحبها عامة يمثل الخطر الدائم النابع من الأعماق .

يميز فرويد بين ثلاثة أنواع من الحصر أى القلق النفسى أو الضيق : حصر موضوعى نابع من تهديد خارجى ، وحصر عصابى يأتى فيه الخطر من الداخل وتثيره متطلبات الأنا الأدنى ، وأخيراً حصر أخلاقى يكون سببه الأنا الأعلى عندما تكون الأفكار والأعمال فى صراع مع أحكام الأنا الأعلى القاسية . وغالباً ما يكون الشخص العصابى فريسة للقلق الذى لا يستطيع منه فكاكاً برغم أن هذا القلق يكون على غير أساس أو مبالغاً فيه بالنسبة للمركز الخارجى ويمكن أن يكون القلق « حصراً هائماً »[1] Angoisse flottante بمعنى أنه يبدو غير قائم على سبب معين ، وبرغم ذلك فهو يولد شعوراً بعدم الراحة وبالخوف . ويمكن أن يكون القلق فوبياً Phobique متخذاً شكل خوف نابع من مواقف خاصة مثل: الخوف من الأماكن العالية ، أو من الفضاء أو من الأماكن المغلقة .. إلخ وقد يوافق المريض على أن خوفه لا يتناسب مع التهديد الذى يقدمه الموقف الخارجى أو أنه يبالغ فى هذا التهديد ولكنه يجد نفسه عاجزاً عن التحكم فى هذا الخوف . وهذه المواقف التى يخشاها يمكن أن تكون ذات صلة بميول لا شعورية تهدد هذه المواقف بتحريكها .

---

(١) الحصر الهائم : المقصود بالحصر القلق النفسى والمقصود بلفظة الهائم أن القلق غير مرتبط بموضوع معين وإنما يستشعر المريض قلقاً دون ربطه بمصدر معين .

والعصابى برغم مرضه لا يفقد كل اتصال بالواقع . فقد يبحث عن مساعدة لتحسين حالته ويريد الخروج من حالة الشعور بعدم الأمان والتعاسة . ولا يسعى إلى الهرب من مشاكله عن طريق تشويه علاقته بالعالم الخارجى تشويهاً كاملاً . أو الانسحاب الكامل منه . فهو واع بعجزه ويفهم ذلك إلى حدما ويشعر بمسئوليته اجتماعياً . ويكمن هنا الفارق الرئيسى بين العصابى والمصاب بالذهان psychtique فمرضى الذهان ينسحبون من الواقع أو يشوهون بعض أوجهه . فالمريض بالذهان نادراً ما يعترف بعجزه « والانسحاب من الواقع يتم لدى المرضى العقليين بطريقتين : إما أن اللاشعور المكبوت يصبح من القوة بحيث يغرقه الشعور الذى يحدده الواقع ، وإما أن الواقع يغدو من القسوة بحيث لا يمكن أن يحتمله الأنا المهدد، وفى ثورة يائسة للدفاع يلقى الأنا بنفسه بين ذراعى الميول اللاشعورية »[١]

ويعد تصنيف الأمراض العقلية غامضاً إلى حد ما[٢] .والأشكال الرئيسية هى الشيزوفرينا أو الفصام Schizophrénie ، والبارانويا Paranoia والذهان الهوسى الاكتئابى psychose maniaco — depressive·

ويتميز الفصام la schizophrénie باختلاف الحياة العاطفية عن الحياة العقلية . فالمريض يتأثر بصورة بالغة من شىء تافه فى حين يظل ساكناً تماماً فى ظروف من المفروض حسب طبائع الأشياء أن تثيره . وعلى هذا النحو فقد تصيبه نوبة هياج لأن ورقة وقعت عند قدميه ويبدو غير متأثر عند إخباره بوفاة قريب له . هذا الاختلاف بين الحياة العاطفية والحياة العقلية أدى إلى دفع الفصام

---

(١) Freud : Nouvelles conférences, p. 16

(٢) يوجد تصنيف منتشر الاستعمال ، يميز بين الأمراض العقلية العضوية والأمراض العقلية الوظيفية . والأمراض العقلية العضوية هى التى نجد لها سبباً جسمانياً . ويمكن أن يتسبب فيها تدهور فى اللحاء كما فى حالة الشيخوخة وإصابة المخ وعدم كفاية مد المخ بالدم والتسمم إلخ . أما الذهان الوظيفى فلا يبدو واضحاً أن هناك سبباً عضوياً . ويدخل فى هذا الذهان الفصام والهوس الاكتئابى .

وتعتبر هذه الأمراض أمراضاً فى الشخصية لا أمراضاً فى الجسد ، ولكن ليس من السهل تأكيد أنه لا توجد عوامل عضوية تتدخل لمجرد أننا لا نراها . ثم إنه لا يجب أن ننسى أن الأمراض العقلية العضوية تفسد الشخصية حتى إنه ليس فى الإمكان وضع خط فاصل بين الذهان العضوى والذهان الوظيفى .

بأنه « انفصال الأفكار » [١] "dissociation des idées" فالمصاب بالشيزوفرانيا انسحب من العالم ليدخل فى عالم من صنعه مأهول بالأهوام الغريبة والأفكار العجيبة .

ويميز الطب النفسى أربعة أشكال رئيسية للفصام : البسيط ، الهبفرينى hébéhrénique والتخشبى catatonique والباراناوى أو الهذائى parano فالفصام فى شكله البسيط يتميز ببطء التفكير والانسحاب من العالم المصحوب بالتخيلات . أما فى الشكل الهبفرينى hébéphrénique فتظهر بصورة أوضح الأوهام الخيالية ، والهلوسة المسموعة ، ونوع من العبط ، وأزمات ضحك عصبية وكذلك استعمال ألفاظ ومعان جديدة فى الحديث . وتتوالى على الشكل التخشبى catatonique حالة بلاهة ثم حالة إثارة . فى حالة البلاهة يوجد انسحاب تام من الواقع ، ويبدو المريض غريباً كلية عن محيطه وعن حاجات جسده . فهولا يتكلم ويجب أن يعامل كما لو كان طفلاً صغيراً . وعندما يتحول إلى حالة الإثارة التخشبية يصبح سلوكه اندفاعياً وشديد النشاط إذ يبدو وقد خرج من بلاهته ليدخل فى حالة مضادة من النشاط الزائد لا على أثر تغير فى مركزه الخارجى ولكن استجابة لميكانيكيات عقله الغريبة الأطوار . وأخيراً فى الشكل الباراناوى la forme paranïde يلاحظ الشك وعدم الثقة حيال الأشخاص الآخرين ، وتفسيراً خاطئاً للأشياء وتوهماً قوياً بالاضطهاد المصحوب بهلوسة شديدة . [٢]

هذا الشكل الأخير يشبه الذهان المعروف باسم بارانويا ، وفى الحقيقة ، يرى بعض الأطباء النفسانيين أن هذا الشكل يدخل فى هذه الطائفة . ومع ذلك فى البارانويا لا وجود لاضطرابات التفكير وإن وجدت فبقدر ضئيل . وتتسم

---

(١) اصطلاح قد يفهم خطأ ويخلط بين الفصام وتعدد الشخصيات – وهو حالة يبدو فيها أن الفرد يغير شخصيته – إحداهما تبدو مبتهجة ومناكفة على حين تكون الأخرى جادة ومتعقلة كما فى الحالات الشهيرة التى درسها مورتون برنس : سالى بوشون .

(٢) كثيراً ما تخلط الهلوسة بالأوهام . فالوهم illusion هو فكرة خاطئة مثل الاعتقاد الخاطىء أن الأشخاص يتآمرون ضدك أما الهلوسة Hallucination فهى تصور خيالى دون موضوع مثل سماع أصوات أو رؤية أشخاص فى حين أنه لا يوجد من يتكلم ولا يوجد من يرى .

البارانويا بأقصى حد من عدم الثقة ، إذ يصل حال المريض بالبارانويا إلى حد الاعتقاد بأن العالم كله متآمر ضده . وأنه مضطهد وأن أبسط الأعمال تهدد راحته . والواقع أنه مضطهد وفكرته التى مؤداها أنه مضطهد مبررة بمعنى معين ؛ فالاضطهاد فى الحقيقة داخلى ، إذ أن الأعمال والأقوال التى لا يثق فيها تأتى منه وتمثل الميول المكبوتة واللا شعورية التى يخاف منها . وبعبارة أخرى هو يحاول الهرب من الميول الداخلية بإلقائها على العالم الخارجى ونسبتها إلى أشخاص آخرين وسنناقش فيما بعد هذه الميكانيكية المسماة بالإسقاط projection

عندما يتم إسقاط الميول غير السارة على العالم الخارجى تصبح العملية منطقية للغاية . غالباً ما يشيد مرضى البارانويا نظاماً للدفاع على درجة عالية من الإحكام لتبرير ريبتهم . وقد ترامت إلى علمى حالة مماثلة كان المريض فيها قد بنى حجة مفيدة مؤداها أنه كان المقصود بأغلب عمليات القتل التى وقعت حديثاً . فكل القتلى فى السنوات الأخيرة يحملون عنصراً كان يراه فى نفسه سواء لتواجده فى نفس المكان عند ارتكاب الجريمة أو لأن الحروف الأولى من اسمه كان يحملها القتيل . وكان يرد على كل اعتراض بمجموعة من البراهين المرتبة بطريقة معقدة لتكون حجة مقنعة للغاية .

والشكل الأخير من أشكال الذهان الذى سندرسه باختصار هو الذهان الهوسى الاكتئابى la psychose maniaco — depressive كل منا يعرف قفزات المزاج أو لحظات الإحساس بالراحة التى يتبعها انهيار . وبصفة عامة يمكننا تقبل هذه القفزات أو التخلص منها أو التصرف بحيث لا تسيطر علينا سيطرة كاملة . ولكن فى الذهان الهوسى الاكتئابى تسيطر قفزات المزاج تماماً . وهى تظهر غالباً دون سابق إنذار وفى حالات معينة تطول فترة الانهيار ثم يتبعها تغير مفاجىء يأتى بإثارة شديدة . وفى حالات أخرى تنقضى فترة من الهدوء النسبى ثم تليها فترة من الانشراح المفاجئ ويختلف التطور من مريض لآخر . فى حالة الانهيار يكون المريض جامداً ولا يستطيع التغلب على حزنه العميق ، يرى نفسه غير صالح لأى شئ ، يدين نفسه ، لا يأكل ولا يتحرك إلا قليلاً . ويمكن أن تأتى مرحلة الجنون فجأة ، فيصبح المريض شديد الحيوية يتكلم كثيراً ويفصح عن أفكار غريبة ويبدو

كما لو كان يتفجر طاقة . ولا يزال أصل هذه الحالة غير واضح تماماً . والتفسير الفرويدى لها هو أنه فى حالة الانهيار يسيطر أنا أعلى شديد القسوة على الأنا غير المسلح الذى يكون تحت رحمته ويجبره على الرضوخ لقواعد أخلاقية غاية فى القسوة . وبعد فترة معينة يفقد الأنا الأعلى قدرته على الانتقاد ويستعيد الأنا قواه .وعندما يهدأ الأنا الأعلى ويسترد الأنا قدرته على الحركة ، يجد نفسه فى حالة من ازدياد النشاط ممزوج بالنشوة ويختال كما لو كان الأنا الأعلى قد فقد كل سلطته أو اختلط به وبالتالى فإن هذا الأنا المختل الذى تحرر يستسلم تماماً لإشباع كل رغباته[1] .

وهكذا فإن العصاب والذهان ميكانيكيات للدفاع يسعى الأنا بواسطتها لحماية نفسه من إلحاحات الأنا الأدنى وفى بعض الحالات يسعى للتصالح مع أنا أعلى شديد القسوة . وهذه الميكانيكات تعبر فى أشكال متطرفة عن ميول موجودة لدى كل منا فنحن نستخدم فى حياتنا اليومية ميكانيكيات نرمى بواسطتها إلى الدفاع عن أنفسنا من ميول لا شعورية قد يؤدى إظهارها إلى الاصطدام بقواعد الشعور . هذه الميكانيكيات هى مصدر أشكال التصرف التى تشبه إلى حد ما تصرفات العصابيين ومرضى الذهان . ومعرفة هذه الميكانيكيات ذات أهمية كبرى لفهم الإنسان على المستويين الشخصى والاجتماعى . ولذا فإننى أختتم هذا الفصل بتعداد أهم هذه الميكانيكيات .

أولاً التكوين العكسى La formation réactionnelle وهو يتعلق بإنماء سمات واهتمامات شعورية هى نقيض للميول المكبوتة . فيوجه الاهتمام بعيداً عن هذه الميول المكبوتة وبذا يشتد ردعها . ومن الأشكال العامة للتكوين العكسى الجهاد فى سبيل الحشمة . فعن طريق إدانة كل ماله صلة بالجنس—صور عرايا ، رقص ، أشخاص يتعانقون ، فن حديث، روايات— يتم الوصول إلى حل وسط تكون فيه الميول الجنسية اللا شعورية قد وجدت مخرجاً جزئياً فى الاهتمام المركز على الأشياء الجنسية على حين أنها فى ذات الوقت ممنوعة منعاً قطعياً بسبب الطبيعة المناقضة لهذا الاهتمام . فيوجد مثلاً أشخاص مغرمون بالبحث الدائم عن

(١) Freud : Conférences novuvelles., P. 67

منظر غير محتشم فى الحدائق العامة أو يتنزهون فى الأماكن الخلوية للتعبير عن عدم رضائهم عن البطاقات البريدية Les cartes postales المعروضة فى واجهات المحلات.

وهناك مثال آخر مألوف وهو مثال ربة البيت التى ترعب كل من يحيط بها بدأبها على إزالة الغبار والدعك والتنظيف . هذه المغالاة فى النظافة هى تكوين عكسى لميل شديد تكون فيه القذارة ذات معنى هام .

والإسقاط projection وسيلة للهروب من الميول اللاشعورية عن طريق نسبتها إلى أشخاص أو مراكز فى العالم الخارجى فيتحول التهديد من تهديد داخلى إلى تهديد خارجى . وبذلك يصبح الهجوم والهروب ممكناً كما لو كان متعلقاً بتهديد خارجى حقيقى . فبواسطة الإسقاط تميل إلى التعرف لدى الغير على هذه الميول التى نرفض الاعتراف بوجودها فينا وندينها . وإن مراقباً يقظاً يستطيع فى الغالب أن يحدد خاصية الميول اللاشعورية بتسجيل الأشياء التى يدينها بأعنف صورة . فالشخص الذى ينتقد كثيراً أخطاء الآخرين يكون لديه إحساس شديد بالذنب حيال أخطائه هو ، والشخص غير المخلص يقف بالمرصاد لغدر الغير ، والعاشق الكثير الشكوك « يسقط » ميوله الشخصية بعدم الوفاء .

ويعتبر التسامى وسيلة هامة للتعبير عن الميول الجنسية . إذ تجد هذه الميول هدفاً واهتمامات لا ترتبط مباشرة بالجنس . فينتزع من هذه الميول وجهها الجنسى وتعبر عن نفسها بوسيلة يقبلها المجتمع . وتبعاً لنظرية فرويد ينبع الكثير من صور الإبداع الفنى والأدبى والثقافى من تحول الطاقة الجنسية . وميزة التسامى أنه يتضمن أقل قدر من الردع إذ لا يتعلق الأمر بميكانيكية دفاع عن الأنا ضد إلحاحات الأنا الأدنى وإنما يتعلق بطريقة تعاون بين الأنا والأنا الأدنى . ومن هنا فهى الوجه المقابل للتكوين العكسى . La formation réactionnelle . وقد أوضح ارنست جونز التقابل بين التكوين العكسى والتسامى على النحو الآتى : « يمكن أن يتسامى الميل البدائى للاستعراض إلى رغبة فى السيطرة جسمانياً أو بالقول أو بأى شكل من أشكال الشهرة . وبواسطة التكوين العكسى يمكن أن يتحول هذا الميل للاستعراض إلى تواضع أو خجل . ويمكن أن تتسامى اللذة البدائية التى يجدها الأطفال فى القذارة إلى هواية الرسم أو النحت أو فن الطبخ ، أو تؤدى إلى

رد فعل يبدو فى الميل للنظافة والترتيب وما إلى ذلك »

ووجود التسامى دليل على أن الأنا من القوة بحيث يستطيع استعمال الميول الغريزية لتحقيق أهداف اجتماعية . وبدلاً من أن ينحنى الأنا أمام الواقع الذى يضيق الخناق على ميول الأنا فإن الأنا يبحث فى الواقع الخارجى عن وسائل للتعبير تكون مخرجاً مناسباً لميول الأنا الأدنى دون أن تثير صراعاً مع القواعد والقوانين الاجتماعية . ولذا يمكن اعتبار التسامى المصدر الذاتى للتقدم الاجتماعى . أما الأمر الذى قد يثير نقاشاً فهو إمكان تشجيع التسامى لأنه يتدخل على مستوى لا شعورى ، ولكننى أميل إلى الدفاع عن نظام تعليم مستنير بمعرفة التحليل النفسى ، يكون الهدف منه ترقية مناهج تقوية الأنا والتأثير بطريقة غير مباشرة على إمكانيات التسامى . وفى نفس الوقت يجب إتاحة الفرصة للتقدم الاجتماعى مثل التنظيم الاقتصادى القائم على أسس معقولة وغيره من الأشياء التى سنعرض لها بعد دراسة النظرية الماركسية .

ومن أشهر ميكانيكيـــات الدفاع المعترف بهـــا دون صعوبة التبرير La Ratinalisation. إذ يسمح التعقل بتحقيق أعمال لولاها لأصبحت مصدر قلق نفسى عن طريق إيجاد توافق بينها وبين قواعد الشعور . ويتم الوصول إلى هذا الهدف عن طريق توسط ميكانيكية قوامها تبرير العمل . وعندما يتم العثور على السبب الذى يبرر هذا العمل على ضوء قواعد الشعور يمكن القيام به دون لوم أو شعور بالذنب . وعلى هذا النحو فإن منتج الأسلحة يمكن أن يجد لنفسه أعذاراً لكون أرباحه تأتى نتيجة لموت الأبرياء عن طريق « إثبات » أن الطبيعة البشرية تتطلب الحرب وأن هذه الحرب ضرورية للتقدم لأنها تنبه وتحرك الخلق والاختراع ، هذا التبرير هو دفاع ضد المنطق الذى يمكن أن يجبرنا على تعديل سلوكنا .

عندما نتبنى وجهة نظر لضبط التعبير عن ميولنا اللا شعورية وللتوفيق بينها وبين قواعد الشعور فإن أى اعتراض منطقى يمكن الإحساس به كما لو كان مهدداً لهذا الضبط بين الأنا والأنا الأدنى . ويلقى هذا ضوءاً على واقعة أن كثيراً من الناس فيما يتعلق بحياتهم العاطفية ، يقررون الانتماء سياسياً أو دينياً ثم يبحثون عن أسباب تبرر قرارهم هذا ، وإذا ما دار نقاش بين شخصين فى هذا الوضع ، فإنه ينتهى

---

(١) Ernest Jones : Paperson Psycho — Analysis, Benn 1918

عادة بصراع بين نظريتين عقليتين يتبنيانهما لتبرير أهداف عاطفية . فكل شخص يفكر فى العثور على حجج لتدعيم ميكانيكية دفاعه أكثر مما يفكر فى الإصغاء للآخر . والشخص ذو «العقلية الواسعة» خاصة إذا كان يحب توجيه الأنظار إلى هذه الصفة ، يكون عادة أكثر ميلاً إلى « المعقولية » من خصمه الذى لا يزهو بهذه الخصلة . فإصرار شخص على سعة أفقه وتفتح ذهنه يكون فى الغالب دليلاً على أنه يستشعر الحاجة إلى تبرير مجموعة من المعتقدات التى يتعلق بها بشدة .

فإذا كانت هذه الأفكار حاضرة فى الذهن أمكن تجنب الكثير من المناقشات البيزنطية غير المجدية ، خاصة فيما يتعلق بالدين والسياسة ، حيث لا تغلب الحجج المنطقية على الآراء النابعة من العاطفة . والحاجة التى يستشعرها بعض الأشخاص للتعلق بمعتقداتهم تؤدى بهم إلى الاندفاع وراء أنواع متباينة من التطرف حيال أولئك الذين يختلفون معهم فى الرأى . وأيا كان هدوء وسماحة طبيعة الشخص فمن الممكن أن تتحول إلى وحشية وشراسة إذا ما كان توازنه العقلى مهدداً بواسطة عرض وجهات نظر لا يستطيع تقبلها لأسباب عاطفية .

هذه الميكانيكيات التى عرضناها فيما سبق يمكن ملاحظتها فى الحياة اليومية ، وليس من الصعب استظهارها لدى الأشخاص الذين نعرفهم ولكن الصعوبة تزداد عندما يتعلق الأمر بأنفسنا . ويزداد حدوث النسيان فى الكلام أو عند الكتابة وهو ما يطلق عليه فرويد «علم النفس المرضى للحياة اليومية» "La psychcpathologie de la vie quotidienne" وقد بين فرويد أن هذه الحالات اليومية من النسيان ليست من قبيل الصدفة البحتة ولكنها مقصودة ومحددة بواسطة تدخل الميكانيكيات اللاشعورية فى الحياة الشعورية .

وعلى ذلك فقد أوضح أنه عندما ينسى شخص ذو ذاكرة قوية موعداً فذلك لأن لديه نفوراً حقيقياً لاشعورياً من هذا الموعد . والطبيب الذى يقول لعميلته الغنية « آمل ألا تغادرى الفراش سريعاً » يعبر عن رغبته اللا شعورية فى أن يستمر فى العناية بها . ويعرض فرويد حالة إرنست جونز الذى أهمل تصدير رسالة بالبريد عدة أسابيع وعندما صدرها فى النهاية نسى أن يكتب العنوان وأعيدت له فكتب العنوان ونسى أن يضع عليها طابع البريد .

العصاب والذهان أشكال من سوء التكيف مع الواقع الاجتماعى . وهى تميز

الأشخاص الذين يخفقون بطريقة أو بأخرى فى علاقاتهم الشخصية والاجتماعية ويستبد بهم القلق والتعاسة حتى إنهم يرون الحياة غير محتملة . ويعد سوء التكيف هذا ذا أهمية كبرى فى المجتمع المعاصر . وهكذا فى نهاية عام ١٩٥٤ قرر البيان الذى أصدرته لجنة أندروود Underwood عن الأطفال أن خمسى ($\frac{٢}{٥}$) أسرة المستشفيات المهيأة يشغلها المصابون بأمراض عقلية أو مختلى العقول . أما عن كون العلاقة بين العصاب والذهان علاقة كمية فهى نقطة لم يتم بعد توضيحها ويجادل البعض فى كون الذهان شكلا متطرفاً من أشكال العصاب . فيدافع أيسنك Eysenck مثلاً عن فكرة أن كلا من الشكلين يكشف عن أوجه مختلفة من الشخصية . ويبدو مع ذلك أنه فى كلا الشكلين توجد عوامل أساسية يؤدى التوتر الذى يطرأ على المركز الشخصى أو الاجتماعى إلى التأثير عليها . وتقدم الحياة الحديثة فرصاً عديدة لإيقاظ ميول عصابية أو ذهانية لدى الأشخاص الذين لديهم استعداد سابق . فالسعى لإحراز نجاح شخصى ولزيادة الثراء الذى يعد سمة التوفيق ، والعمل على التفوق على الجار الذى هو أساس نظام التعليم لدينا ، والشعور بعدم الطمأنينة اقتصادياً واجتماعياً مضافاً إليه الخطر المستمر الناشئ عن إمكان التدمير النووى وغيرها من العوامل تساهم فى زيادة التوتر وتعمل على تهديد التوازن العقلى للأشخاص الذين يكونتكوينهم هشاً . ويبين لنا تحليل فرويد ما هى الصراعات التى على أساسها يتطور العصاب والذهان . وسنرى فيما بعد أن التحليل الماركسى سيوضح لنا المراكز الاجتماعية الخارجية التى يمكن أن تنبه وتزيد شدة هذه الصراعات .

وبهذا نصل إلى نهاية الموجز الذى أقدمه للأفكار الرئيسية للنظرية الفرويدية .

كان شاغلى هو عرض هذه النظرية بأكبر قدر ممكن من الأمانة مع تجنب المتاهات . لقدكان فرويد أحد المفكرين العباقرة الذين تحتفظ أفكارهم بحيويتها وسلطتها خلال عشرات السنوات بعد موت أصحابها ، على حين أن أفكارمن يدعون بالمصححين ، Revisionnistses تختفى معهم . ولذا فإن نظريات يونج Jung وآدلر Adler لا تقدم اليوم سوى قيمة تاريخية بعد أن اختفى مؤسساها .

ولا يعنى هذا أن النظرية الفرويدية لا تتطور ولكن يعنى أن التطور طرأ

فى مجال العلاج ، فى تطبيق أسس النظرية على المركز الإكلينيكى . وقد سبق لنا أن سجلنا أن التلاميذ المعاصرين لفرويد لديهم إحساس متزايد بالمشاكل الاجتماعية وأن هناك محاولة لإدخال النظرية الفرويدية فى الأسس الثقافية والاجتماعية لسلوك الإنسان . وهذا الكتاب مساهمة فى هذه المحاولة مادام يسعى للجمع فى وحدة غنية بين المحاولتين الكبيرتين اللتين شهدهما زماننا لفهم الطبيعة الإنسانية .

يأتى الاعتراض الأساسى على التحليل النفسى ، فى علم النفس العام من السلوكيين Les bihavioristes وخاصة من أولئك المتأثرين بنظرية بافلوف . ولما كان كثير من الماركسيين يعدون نظرية بافلوف ركناً فى علم النفس فإننى لا أود أن أختم هذا الفصل دون أن أمسها .

إن نقط الالتقاء بين فرويد وبافلوف أكثر مما يتصور بصفة عامة . فكلاهما انفرادى متزمت ، وهما يعتقدان أن السلوك الإنسانى له أساس عصبى عضوى Neuro — physiologique . ولكن على حين يصر فرويد على واقعة أن علم النفس لا يستطيع أن ينتظر حتى يتم الوصف العصبى الفسيولوجى للسلوك الإنسانى ، يرى بافلوف وتلاميذه أن علماً وضعياً للسلوك الإنسانى لا يمكن أن يوجد دون هذا العمل .

ومع ذلك فقد باءت بالإخفاق جميع المحاولات التى أرادت إكمال المسافة بين الفروفسيولوجيا والسلوك . حتى إن سلوكياً دقيقاً مثل كلارك . ك . هل Clark C. Hull كتب أن : « المسافة شاسعة ولا يمكن اجتيازها بين الوصف التشريحى والفسيولوجى للجهاز العصبى كما نعرفه اليوم فى أدق تفاصيله ، وما يعتبر ضرورياً لتشييد نظرية معقولة ومرضية لسلوك الجماعات » . وحتى يتقدم علم النفس يزداد اليقين يوماً بعد يوم بضرورة إبقائه مجالاً مستقلاً تشيد أفكاره وقوانينه الخاصة على حدة .

اقترح بافلوف أن عملية التعلم يمكن أن تتم فى ظروف معينة وأن حيواناً محفوظاً فى الجو الصناعى لأحد المعامل يتعلم الاستجابة لبعض المثيرات التى كانت قبل ذلك لا تؤثر فيه . فالكلب يسيل لعابه عند سماع دق الجرس الذى أصبح علامة للأكل بعد أن حرك عدة مرات فى نفس وقت تقديم الوجبات . وقد وسع

بعض علماء النفس الأمريكيين حدود الميكانيكيات الشرطية وحسنوها . وحددوا على وجه الدقة وسيلة مسماة « الشرطية الآلية » "conditionnement instrumental" يقوم فيها الحيوان بعمل مثل الضغط على بدالات أو إدارة الرأس وهى حركات آلية تؤدى إلى حصوله على مكافأة .

أما ما يحدث فى مخ الحيوان ، وطبيعة الاتصالات المتمركزة فى غشائه فلايزال موضوعاً تسيطر عليه التأملات الخيالية . ويرفض أغلب علماء أمراض المجموعة العصبية الحديثين وصف بافلوف لهذه الميكانيكيات . ومع ذلك فإن من فضائل النظرية الشرطية أنها تستطيع أن تعلمنا شيئاً عن الميكانيكيات التى تعمل فى أثناء اكتسابنا لأشكال جديدة من السلوك مثل كيفية تعلم هذا الشىء أو ذاك . ولكنها لا تستطيع برغم ذلك أن تبرر نظرية للسلوك، وإنما أقصى ما تستطيع هو إيضاح بعض الأوجه الهامة مثل معرفة ردود الفعل التى تحدث فى ظروف معينة . ولكننا يجب أن نتساءل وهذا أمر عظيم الأهمية فيما يتعلق بالسلوك الإنسانى : لماذا تكتسب هذه المجموعة من ردود الفعل وما هى أهدافها ؟ لأن التوقف عند معرفة كيف تكتسب غير كاف .

فنحن نعرف مثلاً أن الأطفال يحتاجون للحب وللأمان ولعناية شديدة من الوالدين حتى يصبحوا بالغين سعداء . ونعرف أن الإهمال والفقر والحرمان من الحب والبيت المحطم يمكن أن تسبب كارثة فى حياتهم المستقبلة . فيمكن أن ينتج عن عدم إشباع بعض الحاجات أشكال من السلوك تؤدى إلى هذا الإشباع ولكنها تحقق مضرة للفرد وللمجتمع .

وكمبدأ عام يمكن وصف أشكال السلوك هذه بعبارات شرطية غير أن الموضوع الحقيقى لدراستنا هو هذه الحاجات غير المشبعة ، أما التشويه الذى يطرأ على السلوك نتيجة لعدم إشباع هذه الحاجات فيضع مشاكل خطيرة فى علم النفس لا يمكن الرد عليها بعبارات الانعكاس الشرطى .

ويمكن أن نتساءل أيضاً : ما هى فائدة نظرية الانعكاس الشرطى لإيضاح انجذابنا نحو الدين ؟ سنرى أن فرويد كان يعتقد أن الدين يقدم إشباعاً وهمياً لحاجات عميقة وأنه مواساة لصدمات هذه الحياة وفكرة فرويد عن الله، هى إسقاط projection

للصورة الأبوية يتوجه نحوها الفرد ليستكمل الانتفاع بالحب والحماية اللذين كان ينتفع بهما عندما كان طفلاً ، توضح معنى الميل الدينى عند فرويد . ويبقى أن نعرف هل يمكن أن نفسر هذه الفكرة بعبارات شرطية ؟

نحن نعرف أن نوع الدين والاعتبارات الأخلاقية مشروطة بالوسط الاجتماعى الذى ينشأ فيه الفرد ومن الممكن دراسة الطريقة التى تصطدم بها المؤثرات الاجتماعية لدى الطفل عندما يكبر . ولكن المشكلة الرئيسية تظل قائمة . ما هى طبيعة الحاجة التى تبحث عن إشباع وهمى فى الدين ؟

وصف فرويد بعض الميكانيكيات الداخلية التى تفسر سلوك الفرد والتى تتحدى تفسيراً بعبارات شرطية مثل ميكانيكيات الإسقاط projection والتبرير rationalisation اللذين شرحناهما فى هذا الفصل . فهما يساعداننا على تفهم ما يحدث فى حالات التعصب العنصرى واللونى ؛ وهما يخرجان إلى النور الكراهية والخوف الكامنين واللذين يسقطان على الأقليات ثم يبرران بحجج عقلية بعد ذلك .

وقد خلق فرويد نظرياته قبل أن تدخل اصطلاحات مسيطرة dominantes ومتغيرات variables ونواتج résultantes فى لغة علم النفس . وتعد أفكاره عن الكبت والأنا والأنا الأعلى والأنا الأدنى جزءاً من الأفكار المتسلطة التى بدأ منها عمله . وهى ذات قيمة فى تفسير أوجه السلوك الإنسانى الذى يبدو بدونها متناقضاً ، وهى تسمح لنا بفهم جزء كبير من النشاط الإنسانى .

كان فرويد يأمل أن يأتى اليوم الذى يدعم فيه علم أمراض المجموعة العصبية « النورلوجيا »"neurology" نظرياته وكان شديد الإيمان بالوحدة العلمية . وفى رأيى أن أبحاث بافلوف ساهمت إلى حد كبير فى تحقيق هذا الأمل . ولكن هذا لا يمنع أن يكون لعلم النفس نظرياته الخاصة من الممكن أن تزودنا نظرية نوروفسيولوجية Neuro — physisologique بمعلومات عن طريقة سير الميكانيكيات الوسيطة للسلوك ولكن خصائص حاجات الإنسان والتعبير عن رضائه أو حرمانه تتطلب لإيضاحها أكثر من دراسة نورولوجية . وأى نظرية Neuro — physiologique نورفسيولوجية لا يمكن أن تفيد إلا كسند لنظرية علم النفس ، ولكنها لا يمكن أن تكوّن بمفردها نظرية .